

# مكسيم غوركي

رواية  
NOVEL

## الأشترار

ترجمة  
سعد توفيق



الأشجار

الأشرار  
The Wicked

مكسيم غوري

ترجمة: سعد توفيق

الطبعة الأولى: بيروت - لبنان، 2018

First Edition: Beirut - Lebanon, 2018

© جميع حقوق النشر محفوظة للناشر، ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة، إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله، بأي شكل أو واسطة من وسائط نقل المعلومات، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك النسخ أو التسجيل أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من أصحاب الحقوق



لبنان - بيروت / الحمرا

تلفون: +961 1 345683 / +961 1 541980

بغداد - العراق / شارع المتنبي شارع حسن باشا الجديد

تلفون: 07830070045 / 07714440520

✉ daralrafidain@yahoo.com    f dar alrafidain  
✉ info@daralrafidain.com    Dar.alrafidain  
www.daralrafidain.com    @daralrafidain\_1

تنويه: إن جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي كاتبها، ولا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر.

ISBN: 978 - 1 - 77322 - 370 - 4

رواية

مكسيم غوري

الأشرار

ترجمة:

سعد توفيق



[www.daralrafidain.com](http://www.daralrafidain.com)

## الفهرس

### الإهداء 5

مقدمة الدوس هكسلي 7

مقدمة المترجم 11

تربيمة السرير 19

قصة بطل 47

الكتاب الثاني: كرمورا 85

الإهداء

إلى.....

كل من آمن بأنه سيأتي وقت يحب الناس فيه بعضهم بعضاً، ويغدر كل فرد أشبه بنجم يضيء أمام أمنية أخيه الإنسان طريق الحياة، ويصغي إلى رفيقه كما يصغي إلى أعذب الألحان. ويخطر الرجال أحراراً على أديم الأرض عظاماً في حريرتهم، ويحس الجميع بقلوب سمحة لا يشوبها حسد أو زيغ.

غوري

إننا لا نستطيع أن نتعرف تعريفاً مباشراً على الكاتب الذي نضطر إلى قراءته في غير لغته، بل كل ما يمكننا هو أن نستشف روحه من خلال الترجمة. هناك عناصر مثل الأشعة البنفسجية وغيرها لا نراها ولا ندرك كنهها، ولكنها تؤثر فيما حولها تأثيراً نستطيع أن نستشف منه طبيعة القوى التي أحدثتها. وهكذا الحال مع الأدب الذي نضطر إلى قراءته مترجماً. فهو يؤثر على المترجم تأثيرات تمكننا من التغلغل إلى أعماقه. وكلما حسنت الترجمة أعانتنا في هذا السبيل. وحتى أجود الترجمات لا تسمح لنا بغير هذه المعونة الاستشفافية. فلا تصلنا مباشرة بروح الأصل وجوهره. وغالباً ما يعود هذا على القارئ بالخسارة. غير أن هذا لا يحدث دائماً. فمن ذا الذي يقدر أن يستشف تفاهة قصيدة «الغراب» لادجار يو من خلال ترجمة ملازمه الرائعة. فالقصيدة الإنجليزية «قطعة محفوظات»، ولكنها بالفرنسية سحر خلاب وروعة وقوة. فما الذي نستطيع أن نستشفه من خلال ترجمة أعمال جوركي؟ إن أول ما يبدو لنا هو أن جوركي يعتني بالنسيج اللفظي قدر عنايته بالمضمون لقد عرفنا كتباً عظيماً ومصورين لا يعيرون كثيراً بالشكل. ولكننا عرفنا أيضاً كتباً ومصورين مثل رامبرندت أو شاردان لا يقل الشكل عندهم عن المضمون معنى وتعبيراً. وجوركي ينتمي إلى الفريق الثاني ولا ريب. (ولا شك أن هذا سبب صعوبة ترجمته وقلة ترجماته الجيدة). فهو لا يفتأ يحمل النسيج الخارجي كثيراً من أفكاره العميقة. خذ مثلاً فكرة أن هناك حقيقة كامنة تحت كل تعاسة البشرية وشقائها وقسوتها، حقيقة تكشف عن نفسها إذا تجشم البشر عناء البحث عنها. هذه الفكرة لا يقرها جوركي تقريراً. بل تفرض نفسها في ثنايا الكلمات والعبارات التي قصد بها التعبير عن أمور أخرى. إنها نغم يتخلل أحط كلام دارج وأسمى تعبير شعري خلاب. ومثل هذا النغم عسير نقله إلى لغة أخرى. ولكننا نقدر أن نرى ما يرمي إليه جوركي، وأن نستشف روح الأصل السامية حتى من خلال أسوأ الترجمات.

وجوركي لا يكتفي بأن يؤكد لنا وجود الجمال كامناً في القبح، وأن الخير أكثر أصالة من الشر وسخافات الحياة اليومية، بل إنه يقدم لنا في قصصه شخصيات فاضلة. فقصة «الناسك» مثلاً تتضمن صورة سامية لرجل مضطهد، ويمكننا العثور على صور كثيرة من هذا النوع مبعثرة خلال أعماله.

إن شخصيات جوركي المتنوعة مشوقة في حد ذاتها لأنها تشرح بوضوح زائد المصاعب التي اعترضت الكتاب في تصويرهم للخير، بل هناك كتاب عديدون لم يحاولوا هذا العمل إطلاقاً. فباستثناء الدوق في مسرحية «قسط بقسط» لشكسبير، لا نجد من بين كل شخصياته شخصية خيرة. أما الذين حاولوا فقد صوروا لنا شخصيات خيرة ولكنها في الواقع مشوهة ناقصة. وناسك جوركي نموذج في هذه الناحية. فهو طيب - ولكنه على حافة الجنون، طيب - لكنه جاهل، طيب - لكنه طفل إذا احتاج شيئاً، طيب - لكنه جاهل جهلاً مطبقاً بمشكلات الحياة الاجتماعية، يتقبل النظام الاجتماعي القائم دونما تفكير كما تتقبل السمكة الماء الذي تعوم فيه. ونحن نجد بعض هذه الخصائص أو كلها في أغلب شخصيات الأدب الطبية. فالأمير «ميشكين» مصاب بالصرع، و«شربليز» و«بيكويك» رجالان عجوزان ساذجان كأنهما طفلان لم يبلغا سن الرشد بعد، وفلاحو تولستوي الطيبون ليسوا غير فلاحين عاجزين عن معرفة شيء خارج قريتهم، و«جالاهاد»، لتتيسن يأبى الربت على أفخاذ

النساء، ولكنه لا يرى ضيراً في «حزّ أعناق الرجال»، و«سيرافيتا» وحشي غريب، و«فل الصغير» يثير الغثيان، و«العم توبي» يرضى عن حملات مالرمبو العاشمة وأشبه بالأراجوز. فكل شخصيات الأدب الطيبة مشوهة ناقصة. فلا واحدة منها تجمع بين الطيبة والذكاء، بين الطيبة والرشاد، أو تحوي الطيبة دونما سخف. وأسباب هذا كثيرة فيما أرى. وأولها أن عدداً جد قليلاً من الكتاب كانوا رجالاً راشدين أو نساء راشدات، لذا يعسر عليهم أن يصوّروا إنساناً طيباً وراشداً. وفي ميدان القيم الأخلاقية والجمالية نجد أن المعرفة وظيفية الكائن، فنحن نعرف قليلاً أو كثيراً بقدر ما تسمح لنا طبيعتنا أن نعرف. فمعنى كلمة يختلف بالنسبة لفرد عن آخر. فكلمة الطهارة مثلاً، تحمل إلى القديس معنى يختلف تماماً عن معناها في ذهن الرجل الشهواني. فلو أصبح القديسون كتاباً ناضجين، وهم نادراً ما ينجحون في ذلك فقد يعجزون عن تفهيم الناس حياة القداسة وإغرائهم بها وتشويقهم إليها. سيعجزون لسبب بسيط وهو أن كلماتهم تختلف في معانيها بالنسبة إلى القارئ. ولذا فإنه عندما يحاول الكتاب تصوير شخصية تجمع بين الطيبة والرشاد لا ينجحون إلا في تصوير «غر» فالطيبة المصحوبة بالسخافة أو الضعف العقلي أسهل تصويراً من الطيبة المصحوبة بالرشاد. والسخف والضعف العقلي لا يسهلان فقط عمل الكاتب، بل يسرّان القارئ أيضاً. فقد يضيق القارئ إذا قدمت له صورة كاملة لشخصية طيبة راشدة، ولكن إذا صور الطيب مشوهاً جسدياً، أو غيبياً، أو جاهلاً، أو متقبلاً غافلاً للنظام الاجتماعي، فإنّ القارئ يسر. لأنّ هذا يعينه على تصور نفسه سامياً على الشخصية الطيبة في بعض النواحي على الأقل. إننا حملان جز صوفها، إذا وضعنا في مهب الرياح اقشعرت أجسادنا تحت وطأة اللفحات.

الدوس هكسلي

## مقدمة المترجم

يعتبر جوركي اليوم خالفاً لمذهب جديد في الأدب هو «الواقعية الاشتراكية». وبالرغم مما بين هذا المذهب والواقعية القديمة من صلة، إلا أنهما يختلفان في عدة نواح. فالواقعية القديمة التي يمثلها بلزاك وموباسان أقوى تمثيل تتجه إلى الكشف عن الشرور والآثام الكامنة في نفس البشرية. فقد كتب بلزاك مائة وخمسين رواية جمعها في مجموعات أطلق عليها اسماً له مدلوله الهام هو «الكوميديا البشرية» فيها تجد البخل والدناءة والوصولية والنفاق... إلخ. وهذه «الواقعية الانتقادية» تُعنى أكثر ما تُعنى بالبطل أو الفرد، فالبطل عقدة العمل الفني ومحوره، أمّا الجماعات فليست سوى ظلال تبين صورة البطل وتكملها. كما أن أدب هذه الواقعية يقوم غالباً على العلاقات العائلية والشخصية بين الرجال والنساء. فهي إذن نمط من الأدب انتقادي تشاؤمي فردي منحصر في حدود العلاقات العائلية والشخصية. ونحن نعتقد أن مرجع هذه النقائض في الأدب الواقعي هو «ضيق الأفق» الناتج عن «بورجوازية» كتابها. فالبورجوازية التي لا تعترف بالجماعة كأقوى عامل فعال في التاريخ والتطور والتي تشيد بالحرية الفردية والتي تمجد الحياة العائلية المستقرة بفضائلها المغلقة التافهة كما يقول برجسون. هذه البورجوازية هي التي حدثت من أفق كتابها فجعلتهم لا يبصرون أهمية الجماعات الخالقة للتاريخ والتطور ولا الجوانب الخيرة في الطبيعة البشرية ولا الحياة الرحبة الفيضة التي تموج بكل إبداع. وقد عرف جوركي بنفسه هذا النوع من الأدب حيث قال:

«إن أهم موضوع يتناوله الأدب الأوربي وأدب روسيا في القرن التاسع عشر هو الفرد ومعارضته للمجتمع والسلطة والطبيعة وكانت وفرة الأساسات السلبية تحمل الفرد على مقاومة المجتمع، لأن الفرد كان يشعر بأن المجتمع يسحقه وأن شيئاً يحول دون نموه ولكنه كان يفهم فهماً سيئاً أنه السبب في الابتدال والإجرام اللذين يقوم عليهما المجتمع. وكان أدبنا حتى نشوب الثورة يركز على الرجل وما يصادفه من حوادث مثيرة تجعله يشعر أنه سجين حياته وأنه غير نافع للمجتمع. فكان يبحث عن مكان مريح فلا يجده، فيحزّ الألم في نفسه ويتلاشى هذا الرجل إما في صلح زري مع مجتمع يبعثه أو في تعاطي المخدرات والانتحار».

وقد عاق - ضيق الأفق البورجوازي هذا - الكتاب عن إعطاء صورة صادقة لحياة زمانهم الاجتماعية، وعن تمجيد «الرجل البسيط»، وعن أن يكون الأدب قوة خالقة فعالة في تنشئة النفوس وبناء المجتمعات والحضارات.

\*\*\*

وجاء جوركي بحبه العاطر للحياة، وإيمانه بعظمة الإنسان وقوته فحمل بكل قوته على هذا الأدب الانحلالي الانهزامي وعلى أفكار أولئك الكتاب التي تصور أسود ما في الطبيعة البشرية. وتنتشر اليأس والظلام والفساد والعجز وأظهر للناس تقاؤله العميق القوي وإيمانه بالناس، فكتب عام 1913 عن دوستويفسكي يقول:

«مما لا شك فيه أنّ دوستويفسكي كان عبقرياً. ولكنه عبقريناَ الشرير، فهو قد أحسّ وفهم حتى سبر أغوار الإحساس والفهم، وسرّه أن يصور لنا مرضين... قسوة العدمي السادية، ونقيضها - أي مازوكية المخلوق العفن الفاسد. وهذا الأخير ماهو في الاستمتاع بعذابه، وإظهاره للناس عن خبث وسوء نية... ولقد أحبّ دوستويفسكي تصوير هذه النفس المظلمة المضطربة؛ البغيضة، لأنه كان رجلاً معذباً ذا شعور مريض» وقد كان جوركي ينص على تشيخوف أنه قضى حياته في وصف أشخاص أذلاء مرضى. وظل يحمل عليهما في كثير من المناسبات.

وجوركي يعتبر النقيض التام لدوستويفسكي. فإذا كان هذا يمعن في كشف الأعماق السحيقة المظلمة لروح الإنسان، فإنّ جوركي كان يمعن في إظهار الجوانب الطيبة الخيرة من الطبيعة البشرية. وإذا كان دوستويفسكي مهتماً مشغولاً بنفسه أولاً وأخيراً، وكان كاتباً لا يعنيه إلا أن يسكر نفسه بألعاب خياله المجنونة العاصفة العابثة، فإنّ جوركي كان معنياً بالإنسان. يحلم بإعادة التنظيم الاجتماعي، ويستخدمه كقوة تدفع «الإنسانية إلى حياة أنضر وأشد فتوة كما يقول في خطاب له إلى تشيخوف، وفي كتابه «طفولتي» يقول: «إنّ هذه الأحداث القائمة من حياتنا الروسية تستحق الرواية لأنها الواقع اليومي القاسي الذي لم يمح حتى أيامنا هذه. واقع يجب تتبعه حتى مصادره الأولى واجنثاات جذوره من أذهان الناس وأرواحهم، ومن حياتنا الضيقة العفنة. كما أنّها رغم شدة وطأتها علينا، ورغم ما بها من بشاعة وقبح، فإنّ الروسي لا يزال فتى القلب والجسد بحيث يستطيع أن يقهرها ويزيلها من حياته، ففي حياتنا الغربية هذه، لم ينم الجانب الحيواني من طبيعتنا وحده، بل نما رغماً عنه قوياً ساطعاً مبدعاً - نمط من الإنسانية يلهمنا التطلع إلى الأمام. إلى بعثنا الجديد، إلى اليوم الذي نحن فيه. جميعاً حياة يسودها الوئام والسلام...» ويقول أيضاً في كتابه «معترك الحياة»: لماذا أقص هذه الحوادث المؤسسية؟ إنني أقصها لكي تعلموا أيها السادة الطيبون، أنها ليست ماضياً فات! أنتم النهويمات القائمة، وتسرون بالقصص المفزعة إذا ما أحسن سردها «فالحوادث المخيفة الشاذة تثيركم إثارة لذيدة. ولكنني خبير بالمرعبات الحقيقية، والمروعات اليومية ولي حق لا يجحد في أن أو لمكم بذكرها كي تعلموا أيها السادة كيف عشنا وفي أي حال. إنها حياة وضيفة منحطة كما ترون! إنني أحب الناس، وليست بي أدنى رغبة في أن أو لم أحداً، ولكن يجب ألا يكون المرء عاطفياً، فيخفي الواقع البغيض بما في الأكاذيب من كلمات رقيقة. دعونا نواجه الحياة كما هي، فكل ما بقلوبنا وأذهاننا يحتاج إلى تجديد...».

\*\*\*

مع جوركي إذن ولدت الواقعية الاشتراكية، ذلك المذهب الذي يمعن في الكشف عن الجوانب الخيرة من الطبيعة البشرية، ويبرز الدور الهام الذي تقوم به الشعوب في خلق التاريخ وتطوير العلاقات الاجتماعية. ولا يحصر نفسه في حدود العلاقات العائلية والشخصية، ويمجد الرجل «البيسط»، ويجعل من الأدب قوة فعالة في تربية الشعوب وتطوير المجتمعات. وخير مثال يوضح هذا المذهب هو رواية «الأم» لمكسيم جوركي. فالأم وابنها باقل ما كادت الأحداث تمسهما حتى زالت عنهما القشور النافهة التي ترسبها حوادث الحياة اليومية، وتقجرت من نفسيهما ينابيع الحب الإنساني الخالص المخلص، وظهرت فيهما الطبيعة الإنسانية الحقة بكل ما بها من خصوبة وثراء وإبداع، والشخصيات الرئيسية أو «البطولية» ليست منعزلة عن الجماعات أو ضدها، بل هي هنا التعبير

الكامل عن كفاح الشعب، والتجسيد الرائع القوي لمشاعر الناس، وعواطفهم ومطامحهم وآمالهم. وهنا أيضاً يبرز بأجلى بيان الدور الفعال للشعوب في التاريخ والمشكلة في هذه الرواية ليست مسائل عائلية أو علاقات شخصية، بل هي مشكلة شعب بأسره، مشكلة أمة تسعى نحو فجر جديد... ويتضح لنا الفرق بين الواقعية القديمة والواقعية الاشتراكية، إذا ما قارنا رواية «الأم» برواية «بداية ونهاية» لنجيب محفوظ. ففي «بداية ونهاية» نجد أمًا بورجوازية، حبها قاصر محدود على أبنائها وحدهم، ولا ترغب من دنياها شيئاً سوى أن تضع أبنائها في مكانهم اللائق من المجتمع وعلى هذه المشكلة العائلية تدور الرواية من أولها إلى آخرها، وتنتهي بفشل الأم فيما كانت تبغي. وفي رواية «مليم الأكبر» لعادل كامل نجده يحقر في نظرنا شخصية المثالي المكافح ويظهر لنا «مليم» ذلك الشخص الذي «يساير» مجتمعه باعتبار أنه الشخصية الناجحة، ومثله فعل يحيى حقي في قصته «قنديل أم هاشم». هذه الروايات الثلاث هي خير مثال للواقعية القديمة والواقعية السائدة في مجتمعنا اليوم، فهي تظهر الجوانب السيئة من الطبيعة البشرية ولا تُعنى بغير إظهار البطل معارضة للمجتمع أو السلطة، ولا تعدو حدود العلاقات العائلية والشخصية. وتنتهي إمّا بصلح زري مع المجتمع أو بانتحار البطل أو تعاطيه المخدرات.

\*\*\*

والعنصر الآخر الهام في «الواقعية الاشتراكية» هو العنصر الرومانتي، ونعني بالرومانتية هنا القدرة على استنكاه معالم المستقبل في الحاضر، فالرومانتية هنا لا تعني البعد عن الواقع بل الغوص في أغواره. وإظهار الجوهر النفيس الكامن في الطبيعة البشرية تحت قشرة الصدا التي ترسبها أوضاع الحياة. بينما الواقعية القديمة لم تكن ترى غير هذه القشرة الرقيقة ولا تجاوزها إلى ما تحتها.

في هذه الواقعية الاشتراكية يمتزج عنصر الواقع والرومانتية امتزاجاً تاماً لا انفصام له. فكلما كان الكاتب صادقاً مع الواقع استطاع أن يظهر قوى المستقبل الكامنة في الحاضر، قوى الغد الخبيئة في رحم اليوم، وقرب عمله من الرومانتية. فالكاتب يتناول الحياة في حركتها في تطورها، ويبصر القوى الفنية في صراعها مع القوى القديمة، التي شاخت ولم تعد تصلح للحياة. فيختارها موضوعاً له، مبيناً قوتها وعدالتها وانتصارها المحتوم. وفي هذا يقول جوركي:

«إنّ الأديب الذي يبغى إصلاح النفوس الإنسانية عليه أن يثبت أقدامه في تربة الواقع. وهذا يعني البعد عن الرومانتية القديمة الرومانتية التي تصوّر الحياة التي لا وجود لها، والأبطال الخياليين، متيمة للقارئ الهروب من تناقضات الحياة وواقعها إلى عالم لا وجود له، عالم اليوتوبيا. إنّ أدبنا يثبت كلا قدميه في أرض الواقع الصلبة، ولا يرفض الرومانتية، ولكن عنصر الرومانتية في أدبنا هو نمط جديد من الرومانتية، إنه رومانتيّة مبدعة، لأنّ حياة الشعوب هي مزيج من الواقع القاسي والجهاد الرائع العظيم...».

وقد اعتنق كثيرون من كتّاب البورجوازية نظرية «الألم لم يظهر الروح» متبعين في ذلك أرسطو الذي قال بالتطهير أو «الكاترسييس» والفرويديين الذين اعتبروا غاية الأدب هي أن يعيد التوازن بين لا شعور الإنسان وشعوره. ولا يتسع المجال لنقد هذا الرأي وإيفائه حقه من النقد. ولكننا نقول إنّ

جوركي هاجم هذا الرأي بكل ما في طبعه من حماسة وقوة، واعتبره «أخلاقية العبد». فواجب الرجل الحقيقي في نظره هو المحاولة الدائمة لتخليص البشر من العذاب، لا إغراقهم في التعاسة. وقد حارب جوركي التشاؤم الذي راكمته في الأدب الرومانتيّة القديمة (التعبير الصادق عن البورجوازية المنتصرة) والواقعية القديمة (التعبير الصادق عن البورجوازية المنحلة). ونادى جوركي بعواطف جديدة ومشاعر جديدة، هي مشاعر الإنسان العظيم المناضل لقوى الشر. وليس أدل على إيمان جوركي بالإنسان وبمستقبل البشرية من هذا النص الذي تنتزعه من روايته الأم، حيث يقول:

«إني قوي الإيمان بأنه سيأتي وقت يحب الناس بعضهم بعضاً. ويغدو كل فرد أشبه بنجم يضيء أمام أمنية الإنسان طريق الحياة ويصغي إلى رفيقه كما يصغي لأعذب الألحان. ويخطر الرجال أحراراً على أديم الأرض، عظماء في حريتهم. ويحس الجميع بقلوب سمحة لا يشوبها حسد أو زيغ. وتمحى من القلوب العداوة والكراهية، فلا يعد ثمة شيء يفصل بين النفوس والحق. حينذاك تصبح الحياة هبة عظيمة النفع للإنسان، ويرتفع وجهه نحو الأعلى، لأن الأحرار تعني لهم الأعلى كلها. حينذاك نحيا حياة يسودها الحق والحرية والجمال وطوبى لمن يكونون أشد حنواً على الإنسانية من غيرهم، وتكون حياتهم أخصب وأعمق. طوبى لمن يكونون أكثر حرية، لأن في الأحرار يكمن الجمال كله. حينذاك تكون الحياة عظيمة، والذين يحبونها عظماء. أعتقد أنه هنا يحسن الوقوف...

سعد توفيق

## ترنيمه السرير

قادتني قدامي ذات ليلة صيف إلى زقاق ناءٍ في ضاحية من ضواحي المدينة، حيث رأيت منظرًا غريبًا. رأيت امرأة واقفة في وسط مستنقع هائل، تغوص في وحله، وتذرو طينه كما يفعل الأولاد الصغار.

وكانت قد هبت عاصفة شديدة أثناء النهار على المدينة. وأحال انهمار الأمطار المتواصل تربة أرض الزقاق إلى أوحال. كان المستنقع عميقاً. والمرأة غارقة فيه إلى ركبتيها. وتبينت من صوتها أنها ثملة، فهي إذن عرضة لأن تنزلق قدمها وتغرق في الماء الموحد، إذا أتعبها رقصها.

فنزعت حذائي الطويل، وسرت إلى المستنقع، وأمسكتها من ذراعيها، وسحبته إلى بقعة جافة. فبدأ عليها الفرع أول الأمر، وتبعته طائعة دون أن تتبس بحرف، ولكنها فجأة حررت ذراعها اليمنى بحركة قوية، ولطمتني على صدري، صارخة:

- الحقوني!

ثم سارت إلى المستنقع ثانية، وهي تجرني معها. ثم صرخت قائلة:

- أيها الشيطان! لن أذهب! سأعود بدونك... اذهب بدوني.. الحقوني!

وبرز خفير الليل من الظلام، ووقف على بعد خمس خطوات منّا، سائلاً في نبرة جافة:

- من يحدث تلك الضوضاء هناك؟

فأخبرته أنني خفت على المرأة الغرق، فأردت انتشالها من الماء. فأمعن الخفير النظر في المرأة الثملة، وبصق بصوت عال، وصاح أمراً:

- ماشكا، اخرجي.

- لن أخرج.

- أنا أمرك أن تخرجي

- لن أطيع أمرك

فوعدها الخفير دون عداء قائلاً:

- سأعطيك علكة، يا قدرة.

ثمَّ تحول إليَّ قائلاً بلطف:

- إنها تعيش حوالينا هنا، وتعيش من جمع «الخرق البالية»، اسمها ماشكا، «ولع»!  
وأشعلنا سيجارتين، بينما المرأة تمخر المستنقع بشجاعة، وتصيح بين الحين والحين:  
- قوادون! أنا نفسي قوادة! سأستحم هنا، إذا أردتُ.

فأنذرها الخفير قائلاً:

- سأعطيك حماماً.

وتحول إليَّ الخفير القوي البنية الطويل اللحية، قائلاً:

- هكذا تفعل كل ليلة تقريباً، بينما ابنها يرقد كسيحاً في بيتها.  
فسألته:

- أتسكن بعيداً عن هنا؟

فقال الخفير، دون أن يجيبني:

- يجب أن تضرب بالرصاص.

فاقتربت عليه قائلاً:

- بل يجب أن تُحمل إلى بيتها.

فعطس الرجل في لحيته، رافعاً سيجارته إلى مستوى وجهي. واختفى في الطريق الموصل، قائلاً:

- خذها، ولكن انظر إلى وجهها أولاً.

هذا، بينما كانت المرأة قاعدة في الوحل، تجذف بيديها، وتصيح بصوت أحن:

- «في البحر العميق».

وغير بعيد من مجلسها، يعكس الماء الموحل الزلق ضوء نجمة تعلقت بالفراغ الأسود المخيم علينا.  
وكلما تموج الوحل، تلاشى لمعانها. خطوت إلى المستنقع ثانية، وأمسكت المغنية من إبطيها،

وأقمتها، دافعاً يّاها بركبتي، وقدتها إلى السور. ولكنها استدارت إليّ، ملوحة بذراعيها، وتحدثني قائلة:

- حسناً، اضربني، اضربني! لا يهمني! اضربني! آه، يا وحش، يا جزار! استمر، اضربني!

فسألتها عن مسكنها، بعد أن سندتها على السور. فرفعت رأسها الثمل ونظرتني بعينين غائرتين، فلاحظت أنّ أنفها قد قطع وما تبقى منه أشبه ببرز بعروة، وشفقتها العليا، وقد شطرها جرح قديم، تكشف أسناناً صغيرة، ووجهها المنتفخ يكتسي ابتسامة عاصية. وقالت:

- حسناً، دعنا نذهب.

وسرنا، محتمين بالسور، وطرف ثوبها المبتل يصفع ساقي باستمرار، وغمغمت كما لو أنها تبكي:

- تعال، يا حبيبي.

وقادتني إلى فناء دار كبير ذي طابقين. وسارت بين العربات والبراميل والصناديق، وأكوام الحطب. بحذر، كأنها عمياء، حتى وقفت عند فتحة في أساس الدار، ودعتني قائلة:

- ادخل

فنزلت الدرجات الزلقة أستند إلى الحائط، قابضاً على المرأة من خصرها، عاجزاً عن جمع جسمها المبعثر، وبحثت عن مزلاج الباب حتى وجدته مفتحة، ووقفت على عتبة بقعة سوداء دون أن أجرؤ على التقدم خطوة أخرى. وأتانا صوت ناعم من الظلمة يسأل:

- هل أنت مامي؟ أنت يا مامي؟

- إنها أنا يا حبيبي.

ونفذت إلى خياشيمي عفونة قوية ورائحة قطران. وأشعلت عود ثقاب، فأضاء اللهب الضئيل وجهاً طفلياً شاحباً، ثم تلاشى.

قالت المرأة، وهي تترنج عليّ:

- من سيأتيك غيري؟ إنها أنا.

فأشعلت عوداً آخر، رأيت على ضوءه الواهن، «شخيلية» من زجاج، ويداً هزيلة مضحكة تضيء مصباحاً من صفيح.

قالت المرأة وهي تترنج:

- حبيبي؟

ثمّ انقلبت رأساً على عقب في الزاوية حيث كان سرير فسيح لا يرتفع عن الأرض القرميدية.

وشرع الطفل يصلح الفتيلة التي أخذت تدخن وهو يراقب المصباح بانتباه.

كان وجهه عابساً صغيراً وأنفه مستقيماً وشفته ممتلئتين كشفاه البنات. لكأن وجهه الدقيق رسمته فرشاة ماهرة.

وكان تتافره وهذا الجحر المظلم الرطب مخيفاً. وبعد أن أصلح المصباح نظرتني بعينين طويلتي الأهداب حتىّ لكأنهما مملوءتان شعراً، وقال:

- هل سكرت؟

وأمة ملقاة على السرير تسعل وتئن، قلت:

- يجب تجريدها من ملابسها.

فأجابني الصبي، وقد أرخى ناظريه:

- قلعها.

وفيما أنا أنزع رداء المرأة المبتل، سألتني هادئاً وبلهجة عملية:

والمصباح؟ هل أخرجه؟

- ما الداعي؟

فلم يجب وأخذت أراقبه وأنا أعالج أمه كزكية من الدقيق.

كان جالساً على الأرض في صندوق مصنوع من خشب ثقيل كتب عليه بحروف سوداء:

«تناوله بحذر. ن. ر. وشركاه»

وكان مصراع النافذة المربع يحاذي كتف الصبي ويامتداد الحائط رفوف كثيرة ضيقة. تكوّمت عليها صناديق السجائر والكبريت. وجوار الصندوق الذي يجلس فيه الصبي صندوق آخر مكسو بورق أصفر باهت، يبدو أنه يستخدم كمائدة. وكان الصبي ينظر إلى زجاج النافذة، ويداه المضحكتان المؤسيتان خلف عنقه.

وبعد أن جردت المرأة، ألقيت بملابسها المبتلة على الموقد. وغسلت يدي في حوض غسيل أرضي في الزاوية، وفيما أنا أجففهما بمنديلي، قلت للطفل:

- حسناً إلى اللقاء الآن.

فتطلّع إليّ، وسألني، وفي كلامه لثغة خفيفة:

- والآن، هل أخرج المصباح؟

- إذا شئت.

- وأنت - هل ستذهب؟ ألن تذهب إلى السرير؟

أشار بيده الصغيرة إلى أمه قائلاً:

- معها.

فسألته بنّية صافية، وبدهشة:

- لأي سبب؟

فأجابني بسذاجة مخيفة:

- أنت نفسك تعرف.

وأردف وهو يمد نفسه من الصندوق:

- كلهم يفعلون ذلك.

فنظرت حولي مرتبكاً. على اليمين فوهة موقد قبيح عليه صحاف قذرة، وفي الزاوية خلف الصندوق قطع من حبل قديم وكومة من الخرق البالية، وقطع من الحطب، وخشبة لحمل جرادل الماء. وعند قدميّ استلقى جسد أصفر يغط في النوم.

سألت الصبي:

- أيمكنني أن أجلس معك قليلاً؟

فنظر إليّ من تحت جفنيه، قائلاً:

- ولكنها لن تستيقظ قبل الصباح.

- لست في حاجة إليها.

وجلست بجوار صندوقه أخبره كيف قابلت أمه، وأحاول تمثيل الأمر أمامه بشكل يثير الضحك:

- كانت جالسة في الوحل، تجذف وتغني...

فأحنى رأسه مبتسماً ابتسامة شاحبة، وخمش صدره قائلاً:

- لا شك أنها كانت سكرانة، فهي عندما تتمثل تحب أن تحمل كالطفل تماماً...

في هذه اللحظة تمكنت من رؤية عينيه بوضوح. كانت أهدابه طويلة وطفاء، وجفونه يغطيها بكثافة شعر جميل مقوس صغير. وثمة ظلال تضرب إلى الزرقة تحت عينيه: وبشرته شاحبة ممتعة. وتتوج جبهته ذات التجعيدة فوق أنفه خصلة شعر كستنائية مموجة. ويُعصى على الوصف تعبير عينيه الجامع بين الهدوء واليقظة. كان قاسياً لدرجة أن ضايقتني هذه النظرة الغريبة اللاإنسانية. سألته:

- قدميك - ما أصابهما؟

فتحسس الخرق، وكشف عن ساق أشبه بقرمة الكرنية، رفعها بيده، وأقرأها على حافة الصندوق.

- إنها كما ترى. كلتاها. منذ ولدت لا تريدان السير، إنهما ميتينتان، كما ترى.

- وأي شيء في هذه الصناديق؟

أجابني وهو يرفع ساقه بيده كأنها عصا، ويقرأها بين الخرق على قاع الصندوق:

- إنها معرض.

وبابتسامة هادئة ودودة، عرض عليّ قائلاً:

- أأريها لك؟ خذ راحتك. إنك لم تر مثلها.

وشرع يزيح الصناديق من على الرفوف بحركات ماهرة من يديه الطويلتين، ويناولنيها واحداً بعد آخر. قال:

- انتبه، لا تفتحها وإلا طارت. ضع واحداً على أذنك واصغ، ما رأيك؟

- أسمع شيئاً يتحرك .

- آها، فيها عنكبوت، يا له من وغد! اسمه درمر، إنه شخص رشيق!

وزادت عينا الصبي المدهشتان حياة ورقة، وتلاعبت على وجهه الحي ابتسامة لطيفة. وعاد بحركاته الماهرة يزيع الصناديق من على الرفوف، ويضعها على أذنه أولاً ثم يناولنيها، وهو يحدثني بحمية:

- هذا أنزيم الصرصار، وجيه كجندي. وهذه ذبابة، إنها امرأة المفتش، حشرة شريرة، وأسوأ مخلوقة! فهي تطنّ طول النهار، وتسب الجميع، ولا تتورع عن شد مامي من شعرها. إنها ليست ذبابة، بل زوجة المفتش، وحجراتها ذات نوافذ تطل على الشارع. ولا شبيه لها إلا الذبابة. وهذا صرصار أسود، هائل الحجم، اسمه: السيد. إنه طيب، لا يعيبه إلا سكره ووقاحته، فهو يأتي ثملاً ويدب في الفناء عارياً أشعث ككلب أسود. وهاك صرصار آخر اسمه: عم نيكوديم. أمسكته في الفناء، إنه حاج غشاش، يتظاهر بأنه يساعد الكنيسة، يحب مامي وتدعوه «الغشاش»، إن أحببها أكثر مما تستطيع عدّهم، كثيرون كالذباب مع أن لا أنف لها.

- ألا تضربك؟

- أهي تضربني؟ أنت عبيط. إنها لا تحيا إلا بي. قلبها حنون، وجميلة، وبحبوحة.. لا يعيبها إلا السكر، فيا لها من مغفلة. لقد قلت لها: كفي عن جرع الفودكا يا عبيطة، فنتثرين، فضحكت مني: امرأة غبية بالطبع، ولكنها بيضة طازجة. حسناً، سوف تكشف عنها وترى بنفسك.

كان يبتسم بسذاجة غافلة تحمل المرء على أن يجار بشفقة مرة محرقة عليه. ورأسه الجميل يترنح على عنقه النحيل أشبه بزهرة غريبة، وعيناه تشعان بالحياة، وتجذباني بقوة لا أستطيع دفعها.

ونسيت مكاني في إصغائي لحديثه الطفلي المخيف. ولكنني فجأة رأيت نافذة السجن الصغيرة، ملطخة من الخارج بالوحل، وفوهة الموقد السوداء، وكومة الخرق البالية في الزاوية، وجسد الأم المكوم على الخرق، أصفر كالزبد قرب الباب.

وسألني الصبي مزهواً:

- ألا ترى أنه معرض جميل؟

- جميل جداً.

- ولكن ليس لدي أية فراشة، أو سوسة

- ما اسمك؟

- لنكا

- إنك على اسمي.

- أتقول الحق؟ وأي نوع من الرجال أنت؟

- ولا نوع

- أوه، كذاب. كل إنسان من نوع ما. أنا أعرف ذلك. إنك رفيق حسن.

- يجوز

- أوه، يبدو لي أنك قطة خوافة

- وما يحملك على هذا القول؟

فابتسم بدهاء، بل غمز لي بعينه:

- أوه، أنا عارف

- لماذا تظن ذلك؟

- حسناً، جلوسك معي هنا، يعني أنك تخاف العودة إلى منزلك ليلاً.

- ولكن الفجر يشرق

- لذا أنت ذاهب

- سأعود ثانية.

فغطى عينيه الجميلتين بأهدابه، ولم يصدقني، وقال بعد برهة:

- لماذا؟

- لماذا؟ لمجرد أن أراك. فأنت شخص مهم. أيمن المجيء؟

- بالتأكيد، فكل شخص يأتي هنا.

ثم أردف وهو يتنهد:

- أنت تخدعني.

- أقسم أنني سأحضر

- تعال، تعال لتراني أنا لا مامي. ليأخذها الشيطان. لنكن أصدقاء، آه.

- لنكن.

- حسناً جداً، ولا يهم أنك كبير، كم عمرك؟

- عشرون.

- وأنا إحدى عشرة. ولا أصدقاء لي إلا كاتكا ابنة السقاء التي تضربها أُمي لأنها تجيء لتراني.. أنت لص؟

- لا، لماذا لص؟

- وجهك، إنه نحيف هزيل. كما أنّ أنفك يشبه أنف اللص. إنّ اثنين من اللصوص يأتیان دائماً أحدهما يدعى ساشكا، غبي، وقدر أمّا الآخر فهو فانيشكا، عطوف، عطوف كالكلب. ألا توجد عندك صناديق صغيرة؟

- سأحضر لك بعضاً منها

- هاتها. ولن أخبر مامي أنك ستأتي.

- لماذا؟

- لن أخبرها، لأنها تسر دائماً عندما يأتي الرجال، ولست أدري لماذا تحب الرجال، هذه القذرة. إنّ مامي بنت مهرجة. دبرت أمر الحصول علي وهي في الخامسة عشرة، وهي نفسها لا تعرف كيف حدث هذا. متى ستجيء؟

- غداً مساء

- في المساء؟ ستكون سكرانة عندئذ. وماذا تعمل، ما دمت لست لصاً؟

- أبيع «الكفس البافاري».

- حسناً، أحضر لي زجاجة، هل ستحضر؟

- أكيد، سأحضر. حسناً، يجب أن أذهب

- اجر. هل ستحضر؟

- بالتأكيد

فمد لي كلتا يديه الطويلتين، فضغطت تلك العظام الناحلة المتجمدة برداً، ودون أن أنظر خلفي تسالت إلى الفناء نصف سكران.

كان الفجر ينبثق. وفينوس ترتعش متلاشية فوق كومة الأبنية الرطبة المتداعية. وزجاج نافذة القبو يحدني بعيونه المربعة القاتمة الملوثة كعيون السكارى. وفي غرفة بجوار البوابة ينام فلاح أحمر الوجه قدماه الكبيرتان متباعدتان وذقنه الكثيفة المشعثة تجابه السماء، وتلمع فيها أسنان بيضاء. ولاح لي كأنّ الفلاح يضحك ساخراً بعينيه المغمضتين. ومشى في إثري كلب هرم يحمل بقعة قرعاء على ظهره، يبدو أنها نتيجة ماء مغلي، وتشمم رجلي وعوى بلطف وجوع فملاً قلبي شفقة عقيمة عليه. وانعكست شمس الصباح الوردية الشاحبة على المستنقعات الراكدة، فخلعت انعكاساتها على المستنقعات القبيحة جمالاً لا لزوم له، مهيناً يقبض النفس.

\*\*\*

وفي الغد سألت الأولاد حيث أعمل أن يصطادوا بعض الحشرات والفراشات. وابتعت صناديق صغيرة أنيقة من الصيدلي، وذهبت لأرى لنكا، حاملاً زجاجتين من الكفس، وبعض الكعك والحلوى المسكرة. وتقبل لنكا هداياي مدهوشاً، فاتحاً عينيه الجميلتين اللتين كانتا في ضوء النهار أجمل وأروع.

صاح بصوت لا طفولة فيه:

- أوه، أوه، أوه، كل الأشياء أحضرتها! هل أنت غني؟ كيف ذلك؟ وملابسك قذرة، وتقول إنك لست لصاً! والصناديق الصغيرة؟ أوه! أوه! أوه! إنه من المخجل أن أمسها. فيداي ليستا نظيفتين. من هنا؟ آها، صرصار شبيه بالخوذة، وأخضر أيضاً. أوه، أيها الشيطان! وهل تهرب وتطير! يا إلهي!

وفجأة صاح بفرح:

- موم! تعالي اغسلي لي يدي. وانظري، يا أوزة، ما أحضر لي! إنه الرجل نفسه الذي أتى بك هنا الليلة الماضية كالشرطي، إنه الرجل نفسه. واسمه لنكا أيضاً.

فسمعت صوتاً خفيضاً خلفي يقول:

- يجب أن تشكره.

فأحنى الصبي رأسه بسرعة قائلاً:

- أشكرك، أشكرك.

كان القبو عابقاً بسحابة من غبار كثيف دقيق، فتبينت بصعوبة رأس المرأة الأشعث، ووجهها المشوه، ولمعان أسنانها، وابتسامتها القهرية الدائمة. قالت:

- كيف حالك؟

- كيف حالك؟

أعادت المرأة قولها وهي تمضغ كعك الزنجبيل بصوت مسموع وفيما لنكا يفتح الصناديق بحرص ألقّت أهدابه الوطفاء ظلاً أزداد الدوائر المحيطة بأسفل عينيه. واختلست الشمس طريقها خلال زجاج النافذة القدر، ثقيلة الظل، كوجه العجوز، فسقط ضوء واهن على شعر الصبي الضارب إلي الحمرة. كان قميصه مفتوحاً، يكشف عن صدره، فرأيت كيف يخفق قلبه خلف العظام الناحلة، دافعاً البشرة والحلمة التي لا تكاد ترى.

ونزلت أمه من على الموقد، وبللت خرقة في حوض الغسيل، وأقبلت على لنكا وتناولت يده اليسرى.

صاح:

- لقد هرب! امسكه! هرب!

وأخذ يندفع بجسمه كله من الصندوق، ملقياً الخرق النتنه جانباً، معرياً رجليه الزرقاوين الجامدتين، وضحكت المرأة وهي تعيث بين الخرق صائحة مثله:

- امسكه.

وبعد أن أمسكت الصرصار، وضعته على راحتها تتفحصه بعينيها النابضتين بالحياة، اللتين يحكي لونهما زهرة القمح، وقالت برقة بالغة:

- أهنأك كثير من هذا؟

فأنذرها ابنها بشدة قائلاً:

- إياك وسحقه. فذات مرة سكرت وجلست على معرضي، فسحقت أغلب ما فيه!

- حاول أن تنسى ذلك يا حبيبي.

- إن عليّ أن أقوم بعمليات دفن كثيرة.

- ولكنني أمسكت لك كثيراً غيرها.

- غيرها! ما سحقته كان مروضاً، يا بلهاء! ودفنته تحت الموقد؛ لقد زحفت ودفنته، فأنت تعرفين أنّ لديّ مقبرة هناك. وكان عندي عنكبوت يدعى مينكا أشبه بأحد عشاق أمي. وأعني الرجل المسجون. السمين، المرح...  
فقالَت المرأة وهي تربت خصلات شعره بيد صغيرة سمراء ممتلئة الأصابع:

- أوه، يا حبيبي الوحيد.

ثمّ وكزتني بكوعها وهي تسألني وعيناها تبتسمان:

- أليس ابني الصغير جميلاً؟ أنظرت إلى هاتين العينين؟

فاقترح عليها لنكا مبتسماً وهو يفحص صرصاراً:

- لك عيناٌ منهما، ولكن أعطني قدمين فقط.. إنه قوي! وسمين جداً! يا موم، إنه يشبه الراهب الذي صنعت له السلم، أتذكرين؟

- أذكر فعلاً.

وأخبرتني ما يلي وهي تبتسم:

- أنت ترى أن راهباً أتى هنا مرة، وهو رجل ضخم سمين، قال: اسمعي: أنت تجمعين الخرق، أفلا يمكنك أن تصنعي لي سلماً من الحبال؟ ولما لم أكن سمعت عن هذه السلالم، فقد أجبته: لا، لا يمكنني.

- فقال: سأعلمك إذن. وفتح قفطانه فرأيت حبالاً طويلاً متيناً يلتف حول بطنه، وعلمني.

وثنيته وثنيته وأنا أقول في نفسي: ما حاجته إليه؟ ربا يريد سرقة الكنيسة.

وضحكت، وهي تحتضن كتفي ابنها، وتربته طول الوقت وقالت:

- أه من هؤلاء القوم الماكرين! فقد أتى في موعده، وقلت له: هاك الحبل: فإذا كنت تريد السرقة به، فلا شأن لي. فضحك بخبث. وقال: لا، هذا لتسلق حائط. فلدينا سور هائل الارتفاع، ونحن جماعة من الخطاة، والخطيئة توجد داخل الدير كما توجد خارجه - أفهمت؟ حسناً، وقد فهمت. أحتاجه كي يذهب إلى امرأة ليلاً. وقد ضحكننا سوياً فيما بعد.

فقال الصبي بلهجة:

- أنت ولا شك تحبين الضحك، وأجدي لك أن تشعلي النار تحت الساموفر.

- ولكن ليس عندنا سكر

- اذهبي واشتري بعضاً منه

- ليس لدينا نقود

- وكل هذا لأنك سكير، خذي شيئاً منه.

واستدار إليّ قائلاً:

- هات بعض النقود

فأعطيت المرأة بعضها، فقفزت على قدميها، وتناولت من على الموقد ساموفاً قديماً قذراً، واختفت خلف الباب، محدثة صوتاً من أنفها.

ولكن ابنها صاح في إثرها:

- موم، اغسلي الشباك، فلا يمكن أن أرى شيئاً! إنها، في الحقيقة، بضاعة صغيرة أنيقة.

ثم أردف وهو يرتب صناديق الحشرات على الأرفف بعناية. وكانت عبارة عن قطع من الكرتون مستقرة على خيوط تمسكها مسامير مدقوقة فيما بين أحجار الحائط من ثقوب:

- عندما تأخذ في جمع الخرق البالية تثير غباراً يكاد يخنقني. فأصيح. احمليني إلى الفناء يا مامي وإلا فإنني سأختنق هنا. ولكنها تقول: صبرك. سأكون وحيدة بدونك، فهي كما ترى تحبني، وهذا كل ما في الأمر. كما أنها تجمع الخرق وتغني وتعرف آلاف الأغنيات.

وأخذ يغني، رافعاً حاجبيه الكثيفين، وعيناه العجيبتان تلمعان، وقد أخذه الاهتمام:

أرينا ترقد على سرير من الريش

فأصغيت قليلاً، ثم قلت:

- أغنية قذرة جداً.

فقال لنكا موقناً:

- كل الأغنيات من هذا النوع

- اصغ، ها هي الموسيقى، أسرع، ارفعني!

فرفعت عظامه الصغيرة الخفيفة في حقيبتها المصنوعة من بشرة نحيلة قاتمة. فأخرج رأسه بشغف من النافذة المفتوحة، وبقي هكذا، بينما رجلاه الكسيتان تتمايلان رغماً منه خابطتين الحائط. كان عصفور يغرد في الفناء تغريداً مرتجفاً، مصدراً ألواناً من النغمات، وطفل رخيم الصوت يصيح بمرح، وكلب ينبج. فأصغى لنكا إلى هذه الموسيقى وهو يصفر صغيراً رقيقاً مصاحباً لها.

واستقرّ الغبار في القبو، فصار المكان أخف وطأة. كانت هناك ساعة رخيصة معلقة على سرير أمه. وأطباق قذرة على الموقد، وطبقة كثيفة من الغبار تستقر على كل شيء، وخاصة في الزوايا، حيث بيوت العناكب تتعلق بخيوط قذرة، وأشبه بيت لنكا بحفرة نفايات، يحدق قبح الفقر من كل ركن فيه، جارحاً الحواس. وأخذت النار تشتعل تحت الساموفر قاتمة، وزمجر صوت أجش يقول:

- اسكت!

فتوقف العصفور فجأة عن الغناء

قال لنكا وهو يتنهد:

- عد بي إلى الصندوق، فلقد أسكتوها...

فأجلسته في صندوقه، وسعل بحرص، عابساً وداعكاً صدره بيديه.

- صدري يؤلمني، فليس استنشاق الهواء مفيداً لي. اسمع ألم تر عفاريت أبدأ؟

- لا

- ولا أنا أيضاً. ففي الليل أو اظب النظر تحت الموقد - لعل واحداً يخرج. ولكنهم لا يظهرون. هناك عفاريت في المقابر - أليسوا هناك؟

- وما حاجتك إليهم؟

- إنه أمر مثير. فماذا عساه يحدث لو انقلب أحدهم رحيماً شفوفاً؟ لقد رأيت كاتكا، ابنة السقاء عفريتاً صغيراً في قبو، فلم تفعل شيئاً إلا أن خافت. أمّا أنا فإني لا أخاف الأشياء المزعجة.

وأخذ يلف قدميه في الخرق وهو يتحدث بسلاطة:

- بل أنا أحب الأحلام المزعجة، أحبها حقاً. فذات مرة رأيت في حلمي شجرة تنمو مقلوبة: أوراقها إلى الأرض وجذورها إلى السماء. فغرقت في عرقي، واستيقظت فزعاً. وفي مرة أخرى رأيت مامي ترقد هناك عارية، وكلب ينبح عند بطنها؛ تتناول لقمة وبصقها، ولقمة أخرى وبصقها، وفي حلم ثالث اهتزّ منزلنا نفسه وأخذ يتحرك عبر الشارع يخبط أبوابه ونوافذه، وخلفه جرت قطة زوجة المفتش.

وهزّ كتفيه الصغيرتين كما لو كان مقروراً، وتناول الفاكهة المسكرة، وفضّ الورق الملون المحيط بها، ومدّه بعناية، ووضع على حافة الشباك. وقال:

- سأضع شيئاً من هذه اللفائف، شيئاً جميلاً. أو أعطيها لكاتكا. فهي أيضاً تحب الأشياء الجميلة: كقطع الزجاج، والأواني الفخارية، والأوراق، وما شابه ذلك. ولكن اسمع: لو واطبت على إطعام صرصار، فهل يكبر حتى يصبح في حجم الحصان؟ كان واضحاً أنه موقن بإمكان ذلك. لذا قلت:

- لو أطعمته جيداً، فإنه يصير...

فصاح فرحاً:

- طبعاً، ولكن مامي، العبيطة تضحك مني

وأردف كلمة داعرة شامتاً المرأة:

- إنها غبية! إذن، فالقطة إذا أمكنك إطعامها صارت في حجم الحصان في مدة وجيزة. أليس كذلك؟

- لماذا؟ أجل. ذلك ممكن.

- إنه أمر محزن. فليس لدي طعام كاف. وإلا لكبر حجمها! واهتزّ بجمال مضطرباً، ضاغطاً صدره بيده، وقال:

- ستصبح هناك فراشات في حجم الكلاب! وصراصير تصلح لجر عربات الحجارة، لأنها ما دامت في حجم الحصان يجب أن تكون قوية، آه؟

- ولكن ألا ترى أنّ لها شوارب؟

- وفيما تضر الشوارب، إنها ستكون بمثابة اللجام، وتحصل على عنكبوت، هائل مثل ماذا؟

واستطرد قائلاً:

- وعنكبوت في حجم الكتكات، وحتى هذا سيكون مخيفاً.

لو كانت لي قدمان! لاشتغلت بجد، وأطعمت حيوانات متحفي كلها وابتعت منزلاً لأمي في الحقول الخضراء ألم تزر الحقول الخضراء أبداً؟

- زرتها فعلاً

- خبرني عنها. هي ستخبرني؟

فأخذت أخبره عن الحقول والسحب. فأصغى بشغف دون أن يقاطعني، وغطت أهدابه عينيه، وأخذ فمه ينفرج كأنه يبدأ في النوم. فشرعت أخفض من صوتي. ولكن أمه أقبلت والسامو فر يغلي في يدها، وكيس من الورق تحت ذراعها، وزجاجة فودكا تلتصق بصدرها.

- لقد أتيت

فتهد الصبي، وهو يفتح عينيه إلى آخرهما، قائلاً:

- مكان قال - ولا شيء إن الحشائش والزهور. لماذا، لا تستأجرين، يا مامي، عربة وتذهبين بي إلى الحقول الخضراء؟ بهذه الطريقة سأموت هنا دون أن أراها. صدقيني يا مامي، ولكنك «زفت».

وأنهى كلامه بنبرة حزينة مستاءة.

فأبنته أمه بحنان:

- لا تشتم، لا يجب عليك، أنت لا زلت صغيراً.

- لا تشتم! كل شيء حسن بالنسبة لك: فأنت تذهبين حيثما تحبين، كالكلبة. إنك محظوظة. إنك محظوظة.

- اسمع

وتحول إليّ قائلاً:

- هل الله هو الذي عمل الحقول الخضراء؟

- بلا شك

- حسناً، ولأي سبب؟

- ليذهب إليها الناس في نزهة

- المزارع الخضراء

قالها الصبي وهو يبتسم ويتهد. ثم أردف:

- سأخذ معرضي إلى هناك، وأطلقها كلها قائلاً: إلى حيث يحلو لكم يا إخواني! اسمع: أين صنعوا الله؟

فصرخت أمه وتداعت على نفسها من الضحك. وسقطت على السرير وهي تصيح وتضرب قدميها ببعضهما قائلة:

- يا إلهي! ماذا... يا حبيبي! إنهم صانعو الأيقونات.. المشقوقة من جانبها! إنه الحد!

فنظر إليها لنكا مبتسماً، وشمها بحنان وبلغة بذيئة:

- إنها تتصرف كالطفلة، ألا ترى أنها تحب الضحك!

وأعاد الكلمة القذرة، فقالت:

- دعها تضحك، ولا يهملك

فقال لنكا موافقاً:

- أبدأ، ولا يهمني. إنني لا أغضب منها إلا عندما لا تتظف النافذة فلا تمكني رؤية نور الله، ولكنها سادرة في نسيانها.

وأخذت المرأة تغسل أدوات الشاي وهي تكتم ضحكها، ثم غمزتني بعينيها الخفيفتين الزرقاوين قائلة:

- أليس لدي ابناً لطيفاً؟ لولاه لانتحرت غرقاً منذ وقت طويل. أقسم لك. ولخنقت نفسي.

وقال لنكا مبتسماً:

- هل أنت عبيط؟

- لست أدري. ولكن لماذا؟

- مامي تقول إنك عبيط

فصاحت المرأة بشجاعة:

- ولم أقول ذلك؟ تحضر امرأة ثملة من الشارع، وتضعها في سريرها، وتتصرف، ولا شيء أكثر.  
لم أعن الإساءة إليك. وأنت عليك أن تخبرني. أوه؛ أنت هزيل!

كانت تتكلم كالطفل. وطريقتها في الكلام كطريقة صبية لم تعد المراهقة الأولى. وعيناها لها طهارة العذراء الصغيرة، فبدا وجهها بأنفه الذاهية. وشفته المدلاة وأسنانه العارية أشد بشاعة. كان وجهها تلوح عليه سخرية مقبضة. ولكنها مرحة.

ودعتنا بوقار قائلة:

- حسناً هيا بنا نتناول الشاي

وأقرت الساموفر على صندوق يجاور لنكا. وتساعد لسان خبيث من البخار من تحت الغطاء القذر لأمساً كتفه. فمدّ يده الصغيرة فوقه فلما ابتلت مسح بها شعره وزوى عينيه كأنه يحلم. وقال:

- عندما أكبر. ستأتني أمي بعربة أزحف بها في الشوارع مستجدياً، فإذا تجمع لي قدر كافٍ ذهبت إلى الحقول الخضراء.

فتهدت أمه وضحكت بلطف قائلة:

- إنه يعتقد أنّ المدينة جنة. ولكنك لا تجد في المدينة إلا المعسكرات والجنود المتوحشين والفلاحين السكارى.

فأسكتها لنكا عابساً:

- أنت تكذابين. اسأليه عن المدينة، فقد رآها.

- وأنا، ألم أرها أنا؟

- أجل. وأنت ثملة

فأخذت تجادل كالأطفال محتدة دون ترابط أو منطق، بينما المساء الحار يغزو الفناء، وتعلقت سحابة كثيفة برتقالية في السماء لا تريم، والظلام يرخي سدوله في القبو.

وشرب الصبي فنجان الشاي، وأخذ يعرق، فنظر إليّ وإلى أمه، وقال:

- لقد أكلت وشربت، والآن، بحق الإله، أكاد أنام.

فنصحته أمه قائلة:

- يحسن بك النوم.

- وهو - هل سيذهب؟ أستذهب؟

فأجابته أمه وهي توكرني بركبتها:

- لا تشغل بالك، لن أدعه يذهب.

فقال لنكا مستعظفاً وهو يغمض عينيه، ويريح جنبه، ويغرق في صندوق:

- لا تذهب. لا تذهب.

ثم رفع رأسه فجأة وسأل أمه مؤنباً:

- لماذا لا تتزوجينه، فتزمنين كغيره؟ إنك بهذا تتخلصين من كل عذاب... إنهم لا يحسنون إلا ضربك. أما هو فرجل طيب

فقالته المرأة بهدوء وهي منحنية على فنجان شايبها:

- هس، نم

- كما أنه غني

وجلست المرأة صامتة بعض الوقت، ترشف شايبها من الفنجان بشفتين بغيضتين. ثم التقت إليّ قائلة كأني صديق حميم:

- هاك طريقة معيشتنا. هو وأنا ولا أحد غيرنا. إنهم يسبونني في الغناء، ويدعونني امرأة فاسدة. حسناً، لست خجلة من أحد، كما أنك رأيت كم حياتي معقدة، كل إنسان يرى ما أصلح له. نعم، ضناي نائم، يا حبيبي، أليس عندي طفل حسن، أه؟

- نعم، جداً...

- ولكن ظروف حياتي لا تمكني النظر إليه قدر ما أريد. وأي عقل له!

- نعم، إنه صبي ذكي

- ذلك حق، كان أبوه رجلاً عجوزاً. كان من أولئك... ماذا يسمونهم؟ لهم مكاتب، يا إلهي، إني لا أنكر... كانوا مشغولين بالأوراق...

- أتعنين كاتب عقود؟

- أجل، بالضبط، كان رجلاً مسناً غنياً. شديد العطف. كنت خادمة في منزله، فأحبني.

وغطت ساق طفلها العاريتين بالخرق، ومدت الوسادة تحت رأسه، واستطردت:

- ثمّ مات فجأة. كان ذلك ليلاً. ما كدت أتركه حتّى سقط إلى الأرض، وكانت تلك نهايته. أتبيع الكفس؟

- نعم

- لحسابك

- لا، لحساب آخر

وأدنت نفسها مني قائلة:

- لا تتعال عليّ، «يا جدع». لا يمكنك أن تمسكه عني طويلاً. اسأل أيّ واحد في الشارع. فكلهم يعرفونني.

- ولكنني لا أتعالى عليك

فوضعت يدها الصغيرة على ركبتي، فرأيت جلد أصابعها قد فراه العمل، وأظافرها مكسورة. وقالت بإخلاص:

- إنني مدينة لك من أجل لنكا. لقد حصل اليوم على إجازة وكان هذا جميلاً منك.

قلت:

- يجب أن أذهب

فسألنتني مندهشة:

- إلى أين؟

قلت:

- عليّ أن أقضي شيئاً

- امكث

- لا يمكنني

ونقلت نظرها بين ابنها والنافذة والسماء. وقالت برقة:

- امكث سأعطي وجهي بمنديل، إني أفعل هذا لأشكرك على ما أسديته لابني، سأعطيه، آه؟

خاطبتني بإغراء، وإنسانية، وإخلاص شديد. وعيناها، عينا طفلة في وجه بشع، أشرقنا لا بابتسامة شحاذة، بل بابتسامة الذي يملك ثروة ويمكنه رد الجميل بطريقة مفيدة.

وصاح الصبي فجأة، محملاً، ورافعاً نفسه عن الصندوق:

- موم، إنهم يزحفون، موم، تعالي!

فقالته وهي تحنو عليه وتغطيه:

- إنه يحلم

وخرجت إلى الفناء حيث وقفت أفكر. وأتاني من خلال النافذة المفتوحة صوت أجش يغني بمرح. لقد كانت الأم تغني ترنيمة السرير لابنها، ناطقة الكلام بوضوح:

ستأتي أيام شاقة، حاملة معها

كل أمر تعس

ومتاعب تميت العقول

وتنتثر القلب أشلاء

متاعب وحزن وهم

فأين نختبئ عندئذ؟ آه، أين

فغادرت الفناء مسرعاً، وأنا أصرّ على أسناني كي لا أجأ بالصراخ.

## قصة بطل

كنت أخاف الصراصير والنمل والفئران وأنا طفل صغير لا أخاف الناس بعد. ثم أصبحت العواصف والرياح والظلمة هي التي تملأ قلبي خوفاً. فكنت أغمض عيني تماماً عندما أسمع دوي الرعد حتى لا أرى اللمعان الأزرق على زجاج النوافذ الذي يعكسه البرق. وقد أوهمني أحد الناس - أو لعلي أوهمت نفسي - أنه عندما يمزق البرق كبد السماء يكشف عن فرن هائل، خلف الزرقة التي ترى في الأيام الصافية. وما الزرقة إلا دخان النار التي تحيط بالعالم - وما النجوم إلا شراراتها. وقد تغلي الأرض في أية لحظة كحجر الكريز إذا ألقى في النار. واللهيب هو الشمس، يخبو فيعلق بالسماء قمراً منيراً.

وكانت الظلمة هي ما أخافه أكثر من غيرها. وكنت أعتقد أنها ليست انعدام النور، بل قوة مستقلة معادية له. وعندما كان ترابها القاتم يخيم على الكون، ويتكاثف، ويزداد حلوكة، ويبتلع الأشجار والمنازل، وأثاث الحجرة، كنت أنتظر حتى يصير جامداً كالحجر ويتحجر فيه كل شيء حي، بما في ذلك نفسي.

ولقد أردت دائماً أن ألمس الظلمة وأن ألفتها فكثيراً ما مددت يدي في الأركان المظلمة. وبسطة أصابعي بحذر، فشعرت برطوبة باردة مقبضة تستقر على جلد راحتي. كانت الظلمة في نظري سفاح نار غير كوكبية تحلل كل شيء مرئي إلى تراب أسود. لست أجهل أن صوراً كهذه قد تبدو معقدة جداً بالنسبة لصبي في العاشرة أو الثالثة عشرة، ولكنها فيما يبدو لي كانت ملائمة لسني ذلك. كما أنني كنت أخاف صفير عواصف الشتاء الثلجية وعويلها حتى الجنون. ففي هذه الليلة الشيطانية، عندما كان كل ما على الأرض يعدو في جنون، والأشجار تتلوى كأنها تحاول انتزاع نفسها من الأرض والطيران مع سحب الجليد.. في هذه الليالي الشيطانية كان يخيل لي أن قوى شيطانية قد صممت على تجريد الأرض مما عليها، ومحو المدن، والغابات والناس. وتركني وحيداً في سكون ميت، في صحراء بيضاء باردة. وكنت أحس بنفسي يغمرها ضيق خواء لإنهائي، وبقلبي المرعوب يكمن في حناياها مرتجفاً كقزم معلق بين السماء والبحر. وأسمع صفير الرياح الملعون الهادئ يتردد في صداه نفاذاً، مجمداً وهاصراً جسدي. فأخفي رأسي في وسادتي، وأصم أذناي بأصابعي، ولكن الصفير الشيطاني المدمر لم يكن ينقطع عن الدوي في داخلي.

قد يستنتج امرؤ من هذا أنني كنت صبيلاً نحياً معلولاً. ولكن الأمر لم يكن كذلك. فقد كنت قوي البنية حسن التغذية، أبدو أكبر وأسن من أقراني الذين في سني وكان الناس يعتبرونني أوفر رزاة منهم. أجل، كنت سليماً معافى. وأعتقد أن مصدر خوفي أمام مظاهر الطبيعة يكمن كله في حالتي الصحية - فقد كان خوفي هو الخوف الطبيعي البيولوجي لإنسان يواجه أمر يعجز عن فهمه ويهدد حياته بالدمار. وإني لعلى يقين من أن المريض لا يمكنه أن يخبر الخوف بالقدر الذي يخبره به الرجل المعافى.

كنت وحيد أُمي. ولست أذكر والدي، مقاول الكنائس، فقد مات وأنا في الرابعة. وشغل مكانه خالي، وكان قسيساً أرمل أحبني وأفسدني بقدر ما فعلت أُمي، ودانيا الخادمة، ونيكييتا السقاء وباقي أفراد

منزلنا.

كنت أسأل خالي:

- ما حاجتنا إلى العواصف الثلجية؟

فكان الرجل الضخم السمين، الوجيه البشوش، عازف القيثارة الماهر، المقامر المسرف يطوقني بحنو، ويقول شيئاً يعني التهدئة، ولكنه لا يهدئ:

- هكذا قانون الطبيعة الذي يسير حسب إرادة الله.

ويتوجه إلى أمي وهو يربت شعري قائلاً:

- إن له ذهن فيلسوف.

كان دائماً على استعداد للتحدث إليّ، أحببت الإصغاء إلى حديثه الهادئ الناعم، وكلماته الحنونة الدوارة، وقصصه التي تدور حول القوى الثلاث التي تهيمن على العالم: الله، والطبيعة والعقل الإنساني. ولكنني عجزت عن فهم الصلة الغامضة بين هذه القوى الثلاث، فكلما أصغيت تلاشى الله في غموض المجهول، وزادت الطبيعة تخويفاً، وتشوش الدور الذي يقوم به العقل.

ورسخت في ذهني مشابهة مكدرة مؤلمة. فكانت الطبيعة كاراسيتا الغسالة، وهي امرأة ضخمة، قدرة، يدعونها وتي، تعيش في فناء منزلنا قرب حظائر الخيل. وقد راقبتها زهاء عشر سنوات فلم أرَ في وجهها الأحمر السمين ونظرة عينيها الوقحتين تغييراً. كانت تتأهز الأربعين، بارعة في الدعارة قدر براعتها في العمل. كانت تعاني، مثل كثيرات في سنها، من المتاعب الجنسية - أعني ميلاً إلى الشبان الذين كانت تفسدهم بنفس الشراهة التي بها يفسد الرجال العذارى.

وكانت إذا لعبت برأسها الخمر تسلك سلوكاً رقيقاً عطوفاً، رغم عبثها وشراستها. ويشع في غنائها المصطنع رنة حزن وأسف ويزداد وجهها انتفاخاً، وتبتسم عيناها النحاسيتان في ارتباك، ولكنها كانت في كل سبت تقريباً تنمل حتى تفقد وعيها وتتملكها نوبات جنونية هوجاء. فتبدي عن قوة رجل متين العضلات رغبة وحشية في التدمير. فتضرب صديقاتها الثلاث - وهن نساء كريهات مثلها - وتكسر الزجاجات، وتحطم الكراسي والموائد، وحدث ذات يوم أن هاجمت نيكون السقاء ببلطة، وهو رجل تقي صامت عجوز، يرتدي دائماً في الصيف ملابس بيضاء، فيبدو أشبه بجثة مكفنة، وفي ساعات جنونها هذه يظهر العقل الإنساني في الفناء على شكل شرطي تترى. وفي سكون يطرح وتي أرضاً بضربة من قبضته ويقيدها، وشفته مضمومتان، يداً وقدماً بخرق قدرة مقتولة حبلاً، فلا تزيد عن أن تقول مبتسمة:

- استمر. استمر. قيدني أيها الشيطان

فيزمجر الشرطي وهو يلف الحبل حولها:

- إني أعرفك يا قدرة. إني أعرفك

وذات يوم كانت ملقاة على الأرض مقيدة قرب حظائر الخيل فسمعت نيكول يقول لها:

- إنك لا تشفقين على حياتك. يا وتي

فردت عليه بجفاء:

- وما شأن الحياة بي؟ شيء جميل. حياة...

لم أكن الوحيد الذي يخاف الغسالة العريضة، ولكن خوفي منها كان لا حد له. فقد كانت تثير في شعوراً قوياً بالكرهية. واشمئزازاً زائداً.

وسألت خالي

- لماذا تعيش هذه المرأة؟

- إن العقل لا يجد حلاً لهذه المشكلة. لماذا؟ فليست لدينا إجابة غير «إنها إرادة الله» لست خجلاً من تصريحتي بأن هذه المشابهة الفضة، أعني تشبيه الطبيعة ببوتي والعقل الإنساني بالشرطي النتري لازمتني حتى سن الرشد، ولعل هذه المشابهة لازالت تلاحقني حتى الآن. ولا شك أنها قوت وعمقت خوفي من مظاهر الحياة الصارخة الغامضة المعادية لي، كإنسان.

ولقد أصابتنني الحيرة عندما علمت أن بعوضة يمكنها أن تصيبني بالمalaria، وأن الفئران تنقل إلي الطاعون. حتى البعوضة عدوتي، والفأر الرعدي عدوي، أيضاً؟

وضايقت خالي بالسؤال الصبياني «لماذا؟»

فانفجر في آخر الأمر قائلاً وقد ذوى حاجبيه الكثيفين:

اسمع يا بني، يجب ألا يسأل صبي مثل هذا القدر من الأسئلة هذا جوابي. كفى!

وصاحت في أمي:

- لا تضايق خالك هكذا. لماذا تسأل هذه الأسئلة السخيفة؟

ولكنهما برغم هذا، أخذتا يفتخران أمام أصدقائهما بعقلي الطلعة. فأثارا غروري، وأوجدا حائلاً بيني وبينهما. وبدأت أشعر أنني أكثر اجتهاداً من أترابي الذين لم يكن لي بينهم صديق، وسرعان ما تبين جميع من بالمدرسة أنني جبان واشتدوا في معاملتي لهذا السبب كنت صديقاً ثقيل الظل، أرى الألعاب الرياضية عملاً خطراً لا يستهويني؛ وأخاف ضوضاء المدرسة القاتلة. وكانت المشاجرات بين

صبية الشوارع وتلاميذ المدارس تذكرني بالمعارك الطاحنة بين الهنود الحمر والأوروبيين في قصص جوستاف إيمرد. فسر عان ما تذوقت كبرياء الوحدة، وتبينت في غير وضوح قيمتها كمجال وحيد تستطيع أن تنمو فيه الشخصية المستقلة.

كنت تلميذاً متوسطاً، أذاكر جيداً ولكن بفتور. ولم تستطع العلوم الطبيعية التي كان خالي يتحدث عنها بتقدير زائد، أن تفهر مخاوفي إزاء مظاهر الطبيعة، بل لم تستطع أن تخفف من حدتها. وكان يدرسنا هذه العلوم بحماسة زائدة مدرس شاب يدعى زيدانوف وهو رجل ضئيل مستدير الحجم نشط يشبه القدر، يسميه التلاميذ «الكرة». وكان ذا رأي في تركيب المادة، وحب للكهرباء، فكان يصيح دائماً خلال الدروس:

- كل أسرار الحياة كامنة في الطاقة الكهربائية وسوف نجد مفتاحها عاجلاً.

كان غريب الأطور، عاطفياً له في كل ربيع حب جديد ولكنه بدا لي مضحكاً، به شيء من الطيش يضايقتي، وذات يوم عجزت عن فهم معنى جملة أثناء الدرس. فصاح بي زيدانوف مستاءً:

- أنت شاب ذكي، ولا شك، ولكنك لا تميل إلى العلم. فلا يمكنني أن أشرح لك ما لم تمل إليه. ويخيل لي أن مدرسة اللاهوت خير مكان لك.

وكان ميليج نوفاك مدرس التاريخ طويلاً نحياً، محني الهامة ذا رأس صغيرة صلعاء، ووجه أمرد، وحنجرة هائلة. ولم تكن نفسي تترتاح إليه. وكان ثلث وجهه تحجبه نظارة سوداء كبيرة قاتمة الحوافي ولا أراه إلا شارد اللب، يسير مترنحاً، مهملاً ملبسه، فحذاؤه بال، وسرواله ملتصق بركبتيه. وقد لاحظت أنه يخاف الخيل. فقبل أن يعبر الشارع ينظر بخوف يميناً وشمالاً، وينتظر حتى تمر العربات ثم يسير بسرعة حائياً رأسه، متأرجحاً حذراً.

وكان هذا الرجل يلقي علينا بصوت فاتر دروساً قيّمة في التاريخ، ولم تدب فيه الحياة إلا عندما شرع يبرر قسوة القياصرة. فقد كانت عادته التحدث ويداه غارقتان في جيبه، ولكنه في مثل هذه اللحظات كان لا يتمالك عن سحب يده اليسرى من جيبه ببطء ويرفع أصبعه مقوساً إياه إلى مستوى كتفه، ويحاول التأثير علينا قائلاً:

- لقد كان بطرس الأكبر قاسياً، ولكن الظروف كانت تتطلب منه ذلك.

وعن طريق عرضه الجاف، فتنني التاريخ بكثرة ما فيه من مادة مرعبة. ويبدو أنني كنت أتعمد، أثناء دروسه، ذكر أمثلة القسوة خاصة، لأنه كان يصغي إليّ ويحني رأسه موافقاً.

- أجل إن الأمر كذلك. كان القيصر إيفان المرعب فظيلاً في قسوته، ولكن الوقت كان يقتضي ذلك منه.

وكان ينصّبني أحياناً كمثال لبقيّة التلاميذ، فتزداد كراهيتهم لي، وقد كنت في السنة السادسة عندما قابلني نوافك يوماً في الشارع ودعاني لزيارته.

- تعال غداً، وفي الأيام التالية تعال مساءً.

كان يعيش في جناح من منزل تحوطه حديقة، وكانت حجرته المظلمة مزدحمة بالكتب، تتوسطها منضدة تكدّست فوقها الكتب وبجوار الحائط سرير وفي الزاوية صوان للملابس. وكان المطر ينهمر ثقيلًا دافئًا، وأوراق الأشجار تتهاشم بصوت غريب؛ وبدا هذا الصوت الحريري الجاف كأنه إطار يكمل غرفة نوافك. وكانت الفراشات الرمادية تنفذ من خلال الشباك المفتوح وترقص على المائدة، حول مصباح يحنو عليه غطاء أخضر. واقتربت جمجمة نوافك الصلحاء من المائدة، مستديرة كالقوس. وشرع يحثني على دخول كلية الدراسات الفيلولوجية والتاريخية قائلاً:

- إن لك ذوقاً للتاريخ يا مكاروف، لذا أقترح أن أعطيك دروساً خاصة، وكتباً، وأن أوجه قراءتك. فانفتحت بما وجهه إليّ من ثناء، وقبلت عرضه. فتناول كتاباً، مجلداً بجلدة حمراء من على المائدة ومسحه براحتة.

- هاك كتاب عليك أن تقرأه بعناية زائدة، وأرجوك المحافظة عليه. وسوف نتحدث عنه فيما بعد.

كان كتاب كارليل عن «عبادة البطل». أنا لا أحب الكتب وأفضل عليها قصص المغامرات المترجمة عن لغات أجنبية. ولكنني قرأت هذا الكتاب بارتياح، ورغم أنني لا أذكر ما إذا كنت قد أحببته أم لا، إلا أنني وجدت فيه شيئاً أرضى ذوقي الأدبي، الذي كونه روبنسون كروزو وأبطال فنيمور كوبر المغامرين، وماين ريد وجوستاف إيمرد. وقد أخذني العجب عندما أوضح لي نوافك فلسفة ذلك الكتاب الصغير.

قال بصوت خافت ولكنه قوي: إنَّ الناس في جملتهم وعلى العموم لا شخصية لهم، وأنهم بدائيو العقول وخاملون لا يحبون تغيير حالتهم: ولا رغبة لهم غير الاستزادة من مناعم الحياة الخارجية دون تفهم الحياة وألغازها. وأنهم يجهلون ويحتقرون كل إبداع، بل إنهم عاجزون عن تحسين أوضاع الحياة القبيحة القاسية وعاجزون عن الاختراع والتجريب. وإنما الرجل، الفرد، الشخص هو وحده القادر على أن يسود، ويبدع، وينتج «فلقد عاش الناس دائماً بهدى طاقة الفرد الروحية». لا زالت هذه الكلمات الجافة العامرة ترن في أذني والأصبع الملتوي الذي بدا كأنه يريد أن يقتلع عيني لا يزال ماثلاً في ذاكرتي، وكانت حنجرته تنتفخ تحت ضغط الكلمات بشكل لا ترتاح إليه النفس.

قال:

- بدون إيفان المرعب، وبطرس الأكبر، والأميرة كاترين الألمانية، وبدون بوشكين وجوجل، ودوستوفسكي، لما عرف العالم روسيا، أو درى بها. التاريخ دائماً من عمل الأفراد، وإنجاز الأبطال. فلم يصنع إيطاليا إلا دانتي وبترارك. وما إنجلترا إلا صنيعة ميلتون، وهيوم، وهوبز...

كان يتحدث عن رجال لا أعرف عنهم غير أسمائهم، واستطرد متسائلاً:

- ماذا كانت تكون فرنسا بدون رابليه، وديكارت، وفولتير، وألمانيا بدون جوته، ونيتشه، وفاجنر؟  
ماذا كانت تكون كل أمم أوروبا بدون شعرائها ومفكرها الذين ألهموها وأظهروا خصائصها وسماتها  
وقواها الكامنة؟ انظر إلى قبائل أفريقيا السود، وإلى الكلموك، والقر غير، والباشكير...

كان يحرك أصابعه بسرعة وعصبية، وهو ناشر يديه على المنضدة.

وكان يخفض من صوته شيئاً فشيئاً مما اضطرني إلى تركيز انتباهي بشدة، وأدخل في روعي أن  
أخبر أسراراً لا يعلمها إلا نوافك. وما زلت أذكر أنني كنت متلهفاً إلى أن أنزع عنه عويناته - فقد  
كانت الشيء الوحيد الذي لا يتغير في هذا الرجل. لم أراه قط مرتين أو غاضباً، وإنما جافاً كئيماً،  
كان يسلك في الفصل سلوك عامل اعتاد عمله حتى سئمه. ولكنه في تلك الليلة تغير بلا سبب.  
ولحظت الغضب والحنق في كلماته الهامسة، وبدا وكأنه يشكو وهو يبوح لي بالمتاعب والمضايقات  
التي واجهته. ولاح كأنّ الحديث يثمله كالخمر. ولم يغير تقويسة جسمه الطويل طيلة جلسته، وكان  
يقطع كلماته صوت غريب مفزع يميز الذين يتهتهون:

- أب - أوب - آب...!

قال:

- إن العبقريّة مستقلة عن الأمم. فأعظم عباقرتنا بوشكين سليل رجل عربي، ويوكوفسكي، نصف  
تركي، ولرمنتوف اسكتلندي أرايت؟ إنّ الأبطال فوق الأمم - فوق، دائماً فوق! في كل قطر تجد  
حكماً من دماء أجنبية. ولا أهمية لجنسية من يلهم الناس ويقودهم - ليكن المسيح اليهودي أو  
أفلاطون اليوناني، ليكن هندياً أو صينياً مثل لاورتسي. فروسو وتولستوي رجالان من الروح نفسها  
وفي الحقيقة من اللغة نفسها.. الأبطال والقادة قبيلة خاصة من الأفراد لا يجمع بينهم وبين الكتل  
شيء.

فشعرت أنّ ثمة حقيقة في كلماته، وضايقتني أن أقع تحت تأثيرها.

- ليس الفرد من عينة الكتل - فهناك فاصل عميق يفصل كلاً منهما عن الآخر.

وأردف قائلاً:

- الفرد عدو الواقع الذي يقيمه الناس، ولذا يكرهونه. التاريخ معركة الفرد مع الجماعة، معركة  
يثيرها الناس لرغبتهم في الدعة والراحة، ويثيرها الفرد بسبب الدافع النزاع إلى الإبداع والعمل،  
ولهذا سيظل التاريخ أبداً مفعماً بالقسوة - ولن يخلو منها أبداً، أبداً.

وهمس في أذني وهو يودعني إلى الباب:

- لا تثق بالاشتراكيين، فتعاليمهم خطيرة، مليئة بالأكاذيب إنها تعاليم ضد الفرد. أفهمت؟ إياك والثقة بهم.

واستمرّ في حديثه عن الاشتراكيين، قائلاً أشياء من شأنها أن تثير الخوف منهم، ولكنني لم أفهم منه شيئاً بسبب إرهابي الشديد.

ما زلت أذكر يده الخفيفة على كتفي، وارتعاش أصابعه، والبريق الأسود خلف نظارته - فقد كانت كلها بغیضة إلى نفسي ولقد بسطت أفكاره بالطبع، مشوهاً إياها. فلم أكن جاوزت السابعة عشرة عندما سمعت هذه الأفكار لأول مرة. وأثناء عودتي إلى المنزل خلال الشوارع الساكنة شعرت بضيق جديد يتملكني لم يكن في حياتي شيء يحمل معني من معاني البطولة. كنت شاباً عادياً جداً متوسط الطول، بديناً مدلاً من والدتي التي تتكلف كثيراً في سبيل العناية بصحتي، فتبتت في الوسواس والأوهام. كنت أحب الاستلقاء على الكرسي وبيدي كتاب، أتعجب لمهارة الأبطال وشجاعتهم، وأتأمل الفرق بيني وبين المجرم، وأطرب لشفتي على سيئ الحظ، وأسر عندما يتقن القدر في تعذيبهم. وكنت أحب أن أعرف أن هناك أناساً يجتذبهم الخطر والقلق، ويستلذون الآلام في سبيل سعادة جيرانهم - ولكن لم يستهوني أمثال هؤلاء من الناس، كما أن كارليل ونوفاك لم يفيداني في كثير أو قليل، وفي منزلي تساءلت حانقاً:

- وماذا يهمني من أمر الأبطال والكتل؟

كنت واثقاً أنه يمكنني أن أحيا حياتي دون أن تكون بيني وبينهم أدنى صلة. كما أن بمدنيتنا آلاف من الناس يعيشون دون أن يعرفوا كارليل أو يعنوا بفلسفته، ولا يستفيدون شيئاً من الأبطال والحكام، والاشتراكية، وكل الأمور التي أزعجت نوفاك بلا مبرر. بل لقد وجدت أنه من المضحك أن أفكر في كلماته عن الاشتراكيين. كنت أعرف بعض أحداث بالسنة النهائية متعجرفين متجهمين يعتبرون أنفسهم اشتراكيين. ولست أدري لم كرهت أن يكون على رأسهم ابن نبيل من نبلائنا يدعى بولوتوف كان حدثاً جريئاً يتزعم المدرسة، ويمشي مباعداً ما بين قدميه مصفراً وباصقاً من خلال أسنانه، لأنه انتشل يوماً من النهر امرأة توشك على الغرق، كانت سكرانة على ما أعتقد. وكان في فصلي أيضاً بطل اسمه ردميتوف وهو صبي جميل الطلعة، ابن قاض محلي، قوي البنية، عربي تروي عن حياته الفاسقة الأساطير. وكان مرهوب الجانب محسوداً، ينظر إلى الجميع بعينين هازئتين، ويعاملهم باحتقار المخلوق الذي لم تتجب أم مثله. ويجيب المدرسين إجابات غريبة. فيضحك الجميع منه حتى المدرسين. نوفاك وحده هو الذي لم يكن يضحك منه. فقد اعتاد أن يقول له:

- أجل. حسناً. أنت تظن أن ذلك يضحك الناس. ولذا سأعطيك درجة سيئة.

أحببت اتجاه ردمنتوف المستقل إزاء المدرسين وحسدت قدرته على العثور على كلمات خاصة التصقت بذاكرتي. فذات يوم أثناء درس زيدانوف، قال:

- إنني أفضل الخطوط المعوجة، فهي تبدو لي نابضة بالحياة، قادرة على الحركة المستقلة، بينما الخط المستقيم ميت تماماً.

فضحك الجميع... وكان زيدانوف معجباً به، فقد اعتاد أن يصيح فيه.

- إنَّ لك عقلية حسنة.. ولكنك كسول وقح!

وأثناء تفكيري في كلمات نوفاك، استعرضت كل أبطال المدرسة، وحاولت أن أتصورهم أبطالاً خالقيين للتاريخ، فلم أفجح، فقررت التخلّص من نوفاك بطريقة سهلة وذلك بالامتناع عن دراسة التاريخ.

وبدأ نوفاك أول الأمر كأنه لم يلحظ انقطاعي عن دروسه، ولكنه قال فيما بعد:

- أجل. هذا أمر سيئٍ للغاية.

وبعد مدةٍ من الوقت دعاني ثانية إلى منزله وأخذ يسألني بلهجة الأطباء حين يخاطبون مرضاهم عن سبب تخلفي عن دروسه.

لست أذكر بأية أكاذيب أحبته، وإنما كل ما أذكره هو رغبة عنيدة في إثارة غضبه، وقد فشلت. وفيما هو ممسك بكتفي استمرّ في حديثه عن الموضوع نفسه: عن صراع الناس مع حكاهم وأبطالهم قال:

- إن البطل ينتصر دائماً، حتّى قضى عليه أعداؤه جسدياً آخر الأمر.

كان يخدعني بذلك، والفكرة المستولية عليّ هي أنّه لو خلع عويناته، لرأيت في عينيه بريق رجل مجنون. وقد انصرفت من عنده وأنا موقن بأنّ هذا الرجل لا يناسبني. كيف أتخلص منه؟ ساعدني على ذلك مرض خالي المفاجئ وموته السريع. فقد أصيب باحتقان في حلقه أثناء احتفال في الكنيسة، ونفذ إلى جبهته ميكروب خبيث أبله. وقضى في يومين على ذلك الرجل الوجيه المعافى.

لا أصدق أنّ هناك من جرّب سخافة الموت المخيفة، وعجز الحياة المحزن أمامه، كما جربته عندما رأيت وجه خالي الأزرق المشوّه، وذقنه الشعثاء، وشعره المبعثر على الوسادة - لقد بدا شعره كأنه منتصب رعباً.

وكم كان صوت أجراس الكنيسة حزيناً شجياً، وهو يعلن موت خادمها.

وألمني موته ألماً شديداً. فقد أحببت خالي. كان رجلاً سليم الجسد، خفيف الروح يعتمد عليه.

وقد كان يقول دائماً:

- إنّ الذين يحبون الضحك يعرفون كيف يحيون.

وها أنا ذا لم أعد قادراً على سؤاله عما يحتاج المصابون بالميكروب السبحي أو ما إذا كانوا لا يزالون يحبون الضحك.

ولن أسمع بعد الآن كلماته الحنونة النغم كالقيثار:

- يا بني، تذكر أنه كلما أكثر المرء من الأسئلة، أصبحت أسئلته سخيفة لا معنى لها، هذا قول مأثور عن لكتيوس.

وكان يحب السخرية من المتصوفة التيوزونيين والفلاسفة، وينسب إليهم ملاحظاتهم الساخرة أو يعزو قول أحدهم إلى الآخر وكان يضحك قائلاً إذا ضبط مخطئاً أو ناحلاً قولاً:

ومماذا في ذلك؟ هل سيزداد ما في العالم من شقاء وشر إذا قلت إن أفلاطون كان لا إرادياً؟

وقد اعتاد أن يقول:

- أنا مؤمن لأنه من السخيف ألا أكون كذلك.

فإذا قيل له أن «لأنَّ because» سطحية كان يجيب:

- لا، «لأنَّ» تشير إلى الإيمان نفسه.

وحملناه في سكون إلى فناء في الأرض الخالدة. وظللت واقفاً بجوار القبر حتى غطاه الجليد، فقد كان الثلج يتساقط بغزارة في ذلك اليوم. وعدت وأنا أشعر كأن عظمة قد انتزعت من جسمي وانتابني الوهن والضعف، فانقطعت عن المدرسة، ومرضت بالهبوط.

ولم يلبث نوك أن حصل على عمل في بطرسبرج. وعندما تفقدته تعجبت لتبيني أن رحيل ذلك الرجل كان بغيضاً إلى نفسي كما كانت علاقتي به. ربما كان السبب أن موت خالي جعل شعوري بالوحدة أكثر حدة.

صحيح أنه كان لي أصدقاء يشربون الفودكا، ويتحببون إلى تلميذات المدارس، ويزورون العاهرات. ولكنني لم أكن أحب الفودكا وكنت أخاف العدوى. وكانت غرائزي الجنسية تخدمها الخادمة دانيا، وهي امرأة فاسدة ماكرة، تلهث سعياً وراء النقود وكنت خجولاً أهاب البنات وينعقد لساني في حضرتهن - ولم يكن لدي شيء أقوله لهن، فغالبيتهم لا تقرأ الكتب التي أحبها. فعندما أصرح لهن بشغفي بروايات اسكندر ديماس، يضحكن بتلطف مهين. وكانت أمي تحب الطعام الدسم اللذيذ، وكان هذا شغل حياتها الشاغل. فكانت تجمع في منزلها الشرهين مثلها وتتختمهم - وكانوا هم بالمثل يتخمونها: كانت أمي سيدة حسنة الشكل، حادة الطبع، ذات عينين زرقاوين باسميتين، تتحرك بتراخ وتتكلم بدلال. فكان هذا يكسبها معنى خاصاً، ويجتذب حولها الرجال.

وعندما كنت في السنة النهائية، وقعت أمي في حب طبيب شاب مرح، حديث العهد بالتخرج من الكلية، ولم تكن ترغب في دخولي الجامعة، لخوفها من «الحوادث السياسية» ولا اعتقادها أنني لن ألبث أن أنضم إلى حركات الطلبة، وأقضي نحبي في السجن أو في المنفى. ولم يكن عسيراً عليها إقناعي بالانتظار سنة أخرى، كي أستجم، وقد وافقتها رغم يقيني من أنها تدبر أمر زواجي في تلك

السنة. ولكن ضاع تدبيرها سدى. فقد عارضت في الزواج. لأنَّ خبرتي الضئيلة بالجنس لم تعطني فكرة صحيحة عنه. أهنالك ما يستأهل أن أتحمّل سنوات عديدة قدراً يومياً من المتاعب والمنغصات، لمجرد حصولي على لحظة تشنج سارة؟

أهنالك ما يستحق لأجل تلك اللحظة أن تُبقي إلى جانبك كائناً من جنس آخر، نفسية أخرى، واحدة تعتبر نفسها لأمر ما أنّ لها حقاً في أن تسألك فيم تفكر وكيف تشعر؟ كم يكون الأمر جميلاً لو يستطيع المرء تحضير الزوجة في المطبخ، كما يحضر الحساء. حتّى يختلف طعمها وقتاً عن آخر.

لقد قرأت أنّ النساء يحببن الأبطال، ويجرين وراء الأفياء، وأثبتت لي الحياة هذا الرأي، كل ما قرأته عن الحب جعلني أعتقد أنه ليس إلا خيالاً وأوهاماً، مثل ورقة التين التي يحاول بها المرء إخفاء المشاعر الفظة الفاحشة التي تتحدر بالإنسان إلى البهيمية. لقد وجدت دائماً شيئاً مخيفاً مصطنعاً في النساء - حتّى في البنات الصغيرات. ولست أخشى التصريح بأنّ لديهن رغبة زائدة طفيلية في أن يتعلقن برجل. وخيل لي أنّ النساء يحملقن في المرأة، لا ليتأكدن من قوة أسلحة إغرائهن، بل لأنهن أقلّ مني اقتناعاً بحقيقة وجودهن. ربما أنتتي هذه الأفكار متأخراً في سن العشرين وقت أن كنت عاجزاً عن تصور نفسي زوجاً أو أباً، وأخاف أن أخطو الخطوة التي تحرمني من كل استقلال وتقلق راحتي.

ولم تمض سنة حتّى كنت طالباً في كلية الطب، وفي السنة التالية حققت مخاوف والدتي: فقد اندمجت في المظاهرات بلا وعي وأصبحت والبوليس يسوقني مع قطيع من الطلبة إلى قاعة ميخائيلوفسكي التي رحلت منها إلى بلدتي. وأعلنت أمني بخوف وعصبية أنها سوف تتنحر إذا عصيتها. ولم أعارضها. فقد كانت الجامعة تضايقتني بوضائها، وسياستها، وأحزابها، ومعاركها. وكان عسيراً علي أن أتصور العلماء يتخرجون في هذا الجو المزعج المضطرب الذي تقتفر إليه البلدة وقد تبينت أنّ الطب علم فاسد. فلم أكن أحتمل التفتيب في أحشاء الجثث العفنة. ويتملكني الرعب عندما أتصور نفسي جثة ينزع منها القلب حدث هازل بسكينه الصغيرة الغبية وفي فمه سيجارة. كان هؤلاء الشبان بدخانهم وأجفانهم المتناقلة من تأثير التدخين يخيفونني كما تخيفني الجثث، التي كان يبدو عليها الغباء بعد مضيّ يومين أو ثلاثة مثل هؤلاء الذين سيصبحون أطباء المستقبل، كانوا يضحكون ويتبادلون النكات وهم يعدون الجثث للمشرحة. وبدالي أنهم يضعون هذه اللامبالاة أمامهم بدلاً من مشكلة الحياة الغامضة، ومشكلة الروح التي تتبخر على نحو ما من كومة الجثث العفنة البشعة. لا شك أنّ لبعضهم رغبة في تفهم حقيقة الجسم البشري - ومن ثمّ فمن أعجب الأشياء هذه اللامبالاة بالقوة المجهولة التي تحرك الجسم وتثير فيه المشاعر والأفكار. أمامي هنا على المشرحة جثة فتاة مرحة مستهترّة، تدعى كلافديا إيفانوفا. انتحرت منذ يومين بشربها حامض البروسيك. عيناها جاحظتان، لن يرتفع حاجباها أبداً، أحدهما أعلى من الآخر والجفون مطبقة على العينين، تمتدان رعباً وألماً. والشفتان منفرجتان في صرخة خرساء. ولاح لي أنني أسمع تلك الصرخة، وأنها ترتفع وتنتشر في الحجرة حاملة رائحة نفاذة تثير دواراً وغثياناً أليماً. بينما مواطني ردمنتوف يعمل مبضعه في معدة الجثة الصغيرة القاتمة، ويتمتم كما هي عادته:

- الدعارة مهنة المصابات بالهستيريا.

كنت أعلم أنه والطالب الآخر الواقف بجوار المنضدة ويده خلف ظهره، كانا وثيقي الصلة بالفتاة، إنهما قد تمتعا بالجسد الذي يمزقه ردمنتوف الآن بتلك اللامبالاة، لم أكن أتوقع منهما شيئاً من كلمات الرحمة الإنسانية، كلمات قليلة لا فائدة منها ولكنها مريحة تهدئ النفس الثائرة - ولم أكن أنتظر أو أريد شيئاً منهما ولذا كان من العسير مكوثي بينهما. فانصرفت، وعند خروجي شيعني ردمنتوف بهذه العبارة الساخرة:

- فتى متوسط الذكاء ولكنه خرع.

كان الناس بوجه عام يعاملونني باستهزاء. فلم أكن «رفيقاً مسلياً».

وكان ردمنتوف وقحاً وقبيحاً، يحسن الكلام، ويلعب دوراً هاماً بين جماعة الطلبة «الأكاديميين»، وكان أعداء السياسة يخافه بعضهم، ويكرهه بعضهم الآخر، ويحبه فريق ثالث كما تحب الكلاب أسيادها.

وهكذا تركت الجامعة غير آسف. وبعد أشهر قليلة حصل لي الطبيب - صديق أمي - على عمل في مجلس العدل. فقد كان أخوه كاتم سر الحاكم. ومكثت في ذلك العمل سنتين دون أن يلتفت إليّ أحد. كنت أباشر عملي هذا في أشد فترات الحرب اليابانية وثورة 1905 - 1906. وكان الحاكم رجلاً مسناً ضعيفاً نحيلاً ذا شفتين متجهمتين ومظهر يدل على الشر، لا يهتم من العالم كله إلا شيء واحد وهو أن يجد الرداء الذي لا يستطيع الرصاص اختراقه. وكان رئيسي المباشر، أي أخو الطبيب، رجلاً في الخامسة والثلاثين رقيقاً أصلع، يرتدي بنيقة منسأة، ويقامر بإسراف، ويهوى جميع الألوان الخزفية. أمّا زملائي الآخرون فقد كانوا أنصاف متوحشين وأنصاف أشباح. ولم يكن بينهم غير شاب مجهول الأصل يدعى درودوف، جريء مغرور يضايق الآخرين بتبرمه الدائم مضايقة شديدة. كان هذا الشاب يلتقط ما يحدث في المدينة وينقله نهاراً إلى حجرات الديوان المعتمة العابقة بدخان السجائر، مهتاجاً عصيباً كي تثير كلماته القلق والاضطراب. كان مكتبه قباليتي أمام النافذة التي تحجب وراءها أغصان شجرة بلوط عتيقة. ويبدو والظلال تتلاعب على وجهه المدبب النحيل كأنه يضحك في سكون ويؤلف أشتاتاً من الحوادث الشريرة المفزعة. وقد اعتدت النظر إلى يديه، فقد كانتا قاتمتين نحيلتين أصابعهما دقيقة وأظافرهما حادة مقوّسة تشبه مخالب طائر مفترس. وكان يخبط بأصابعه على المكتب أو يحركها كأنه يعقد عقداً ويحلها - وبغريزة المنحط البدائي، وأشبهه بدبابة خريفية شريرة - أخذ يطن ساعة بعد أخرى عن إخلال الجنود الوحشي بالأمن وثورات الفلاحين التي سببها الطغيان، والاضطراب المنتشر في المدينة، والرعب الذي ساد بسرعة كأنّ الأرض تفرزه من جوفها أمّا هو فقد بدا كأنه لا يخاف شيئاً، ويسره أن يخيفني.

- إنها تندلع

كان معتاداً أن يلفظ هذه العبارة، ناطقاً المقطع الأول من الكلمة بصوت مشووم أشبه بالفحيح.

- ما التي تندلع؟

فيخفص أنفه الطويل في بعض الأوراق، ويصفر بمرح، دون أن يجيبني. وكان من عادته أن يقرأ الجرائد بعين، ثم بأخرى، مغمضاً كل واحدة بدورها. كان من الواضح أن هذا القزم يسرّه جداً أن تجري الأمور فوضى، فهو لم يكن من الذين يرقبون الحوادث وكأنها لا تعنيهم، ولا يؤذون أحداً، ويسرون برؤية النيران وجرائم القتل وحوادث الطرق.. من النوع الذي تستوي لديه المأساة والملهاة، وهو في مكانه من المسرح. لقد كان هذا الرجل نذير الشؤم الذي كان على وشك أن يمزق حياتي.

كنت في حالي العقلية هذه عندما أرسلوني في مهمة إلى مدينة ريفية صغيرة، كامنة بين الحدائق، قائمة على تل مرتفع يجاور النهر ونزلت في بيت مدير البوليس المساعد، الذي أصيب إصابة بالغة في حادثه تصادم عندما جمحت خيول مركبته، خائفة من الفلاحين.

ومن نوافذ هذا البيت رأيت الفلاحين يشعلون النار في المزارع وفي ظلام الليل كانت السحب في الاتجاه الجنوبي الشرقي تزداد احمراراً كأنّ الشمس لم تغب بعد. وعندما ادلهم الليل، خيم منشار أحمر من النار بأسنانه النائثة على الغاية، ثم اندلع لهيب من الشمال أقرب ما يكون إلى المدينة، وسمعت أول الأمر طنيناً غربياً، وقعقة عجلات، وعواء كلاب. وعلى ضفة النهر اليمنى تتدلع كومة هائلة من التبن، ثم أعقبها أخرى، وأخرى. وأضاعت كومات النار الثلاثة هذا الطريق المحتشد بصف من العربات طويل وموكب من الجماهير أسود كأنه النمل. والتقت النار بالنصف الأسفل من مدخنة المصنع. وتطاير بناء من القرميد على الأرض الملتهبة. واندلعت السنة للهب من سفينة رمادية تشبه غطاء كفن هائل وأضاعت منزلاً أبيض ذا أعمدة وشرفة. وكان في إمكان المرء أن يرى مياه النهر، فقد كانت تلمع وتغلي. وشاهدت هذا كله وكأني في حلم، وأيقظتني ظلال سوداء تمرّ بنافذتي. قالت واحدة منها:

- إنهم يسرون حسب خطة موضوعة.

وكانت هذه الكلمات سبباً في أن أمدّ بصري فوق ما أحتمل وأنصب كل ما رأيته في ذهني، وملاه بالرعب. وقفزت إلى ذاكرتي الجملة المشؤومة:

- إنها تندلع.

واندفعت موجة سوداء من الرجال إلى الشرفة. وكنت أستطيع أن أسمع بوضوح ضوضاء تكسير زجاج النوافذ، وأزيز اللهب، والصرخات المعولة، وضجيج الحديد. وعلى مياه النهر القرمزية تبدو القوارب مندفعة بسرعة وبلا انقطاع، ومجاديفها تلمع أشبه بمخالب الخنفساء. وخيل إلي أن رجال المدينة يندفعون ليشتركوا في أعمال السلب.

قضيت الليلة بطولها، حتى مطلع الفجر، واقفاً بجوار النافذة أراقب عمل الرجال الشبيه بعمل النمل. وعلى ضوء النيران رأيتهم يسحبون أشياء ثقيلة الظل، وأكوام هائلة في جميع الاتجاهات، ويتدافعون ويقاتل بعضهم بعضاً من أجلها، وكان هناك حصان قرمزي اللون غريب الشكل يخطر طلقاً عبر شاطئ النهر. ومسحت النار المنازل من على الأرض، كأنها مكنسة حمراء، رغم تساقط

المطر بغزارة، وأخذ الظلام المفعم بالدخان يتكاثف وقد صيرته النار شديد الاحمرار، وأخذت النار تنتشر في مساحات تزداد اتساعاً، بينما أحالت الظلمة المتكاثفة الرجال إلى عفاريت قرمزية وكانت هذه العفاريت تحيا مرتعشة دقيقة أو دقيقتين ثم تمحى وتختفي ثانية بين الظلال. تذكرت خوفي الطفلي من الظلمة، ولكنني أردتها حينذاك أن تزداد كثافة وثقلاً حتى تذوب فيها النار ومن أشعلوها إلى الأبد. وعندما غزرت الأمطار قرب الفجر رأيت والفرح يغمرني أن النار قد هبطت إلى الأرض، وتلاشت واختفت وأن الرجال والخيول السوداء قد تبددت. وعند الظهر عقد «ذوو الرأي» اجتماعاً في ميدان المدينة، وقتلوا فيما أعتقد اثنين أو ثلاثة من الثوار كانوا يسيرون في طرقات المدينة حاملين صور قديسين وصلباناً سرقوها من الكنيسة. وفي المساء شعرت كأن المدينة قد هجرها أهلها وأن الخوف من الليل قد شل حركتها. فأحسست بالدمار وكان عقلي مكدراً، واستقرت في ذاكرتي صور جماهير الناس السوداء، وهم يدمرون ويشعلون النار ثمار في كدهم. وآلم ذهني ذلك الجنون السافر كأني ضربت بحجر على أم رأسي، وملاً كياني ألم غضوب، أثار في الخوف من الناس. وأثناء عودتي صادفت فصيلة من جنود المشاة يقودها ضابط طويل الساقين، أحمر الفودين، وكان الجنود يغوصون بأقدامهم في الوحل غير هيايين ويغنون أغنية سخيفة عن عصفور. وعندما أخبرت الضابط أن قد سبق السيف العذل، صفق مبتهجاً وأدهشتني تماماً هذه الابتسامة الوقحة المزهوة. وبعدما تركتهم استرعى انتباهي أن أبطال الدولة، وهم يسألونني فلقين عما حدث في الأقاليم، لم يمكنهم إخفاء بريق الفرخ في أعينهم. فبدأ قلقهم مفتعلاً واهتمامهم زائفاً. وحتى الديوان كان يسوده جو كره من الاستخفاف والمرح. وأخذ درودوف بيتسم بدهاء وهو قابع في كرسيه. وأصبح أكثر طولاً. وأشد هياجاً.

فرايت من واجبي أن أذكره لدى كولونيل بيهر مدير الأمن. فوضع درودوف تحت المراقبة، وأجري التفتيش في منزله. وكان إحساسي صادقاً، فقد كانت هناك صلة بين درودوف وأحد الثوار وألقي القبض على بعض الناس، وعلمت ببالغ الدهشة أن بين المقبوض عليهم رجلاً خطراً ثبت أنه شماس كنيسة، وتلميذ خالي.

لن أتحدث عن الحوادث المعروفة للجميع، وإلا كان حديثي مملاً، لن أتحدث عن ضعف الحكومة وأخطائها التي أشعلت النار في الثورة. فكل ما رأته عينايا كان بغيضاً منفراً. رأيت عمال مصنع النياب، ومصنع الصابون يسيرون أمام نوافذنا حاملين أعلامهم الحمراء، حشداً من الناس قذرين أنصاف متوحشين، يسيرون متطلعين بخوف إلى نوافذ المنازل كأنهم يخشون أن تصب عليهم مياه مغلية، وكان يقوم بدور الجدي في قطيع الخراف هذا رجل مسن أعرج يسمى باراسين، وهو منفي سابق، ومراسل صحف يسارية. والكيميائي جولد برج الذي كان يحمل علماً أحمر ويصيح بعنف، وعلى جانبي الحشد المندفع في طريقه إلى الجريمة، يجري شبان كما تجري كلاب الراعي حول الأغنام. لم يكن هذا الموكب يختلف في شيء عن مواكب النمل التي ظهرت في الأقاليم خلف النهر، إلا في كثرة احتشادهم وإرهابهم. وهبت رياح هزت بعنف الأعلام الحمراء، والشعور المشعثة، والملابس القذرة الممزقة. وكان بعضهم يسيرون متردداً، والبعض الآخر مسرعاً، وفريق ثالث يبطن خطواته بحرص. وبدأ لي أن الخوف يملأ قلوبهم جميعاً، وأنهم إما يريدون مواجهة الخطر بأسرع ما يمكن، أو لا يعرفون كيف يتحاشونه. لم يخفني الحشد بصراحة، بل الرجال المجانين الذين يقودونه. وعندما خطر لي أنه ربما في نفس هذا الوقت من المساء يقود أمثال هؤلاء المجانين

الجماهير العمياء خلال شوارع مدن روسيا ملقن بهم بين أنياب السلطات، سمعت صوت العاصفة الثلجية المشؤوم يتردد صدها في قلبي، الصوت نفسه الذي أثار فيّ الخوف وأنا طفل صغير.

وقد ضرب بارامسين ضرباً مبرحاً في الميدان أمام محكمة المدينة ثمّ قتله عامل من عمال مركز الصحة. وضرب سائقو السيارات جولدبرج حتى فقد النطق. فتفرق الحشد، ولكن عادت حشود المتظاهرين إلى الظهور في اليوم التالي، كانوا يسيرون في شوارع المدينة حاملين أعلاماً حمراء ويحمل بعضهم صور القيصر، وانفجرت قنبلة فأطارت قدم شرطي من الفرسان، وجرح بعض الناس، وماتت تلميذة يهودية، وبالجملة تمّ كل شيء حسب ما اعتبر أنه خطة موضوعة في أيام الجنون تلك. وانهارت قواي العقلية والبدنية، فلم أبرح المنزل.

وبرزت أمام مخيلتي كلمات مدرسي نوافك مكتوبة بحروف من نار، وتبينت أنه بتفكير عميق نطق حقائق مهمة:

- التاريخ من عمل الأفراد، إنه نتيجة جهاد الأبطال الإبداعي.

كان كلامه حقاً، فهذا هو فرد يقود حشداً. فحشد العمال كان يقوده رجل مسن أعرج مشاغب. صحيح أنه بطل تافه مثل الحشد الذي يقوده، ولكنني لم أستطع أن أنكر بطولة الرجل الذي يسير في مقدمة الناس وهو يقودهم إلى موت محتمل. وفكرت في هذا الأمر طويلاً. فلم أجد في نفسي أي عنصر من عناصر البطولة لذا رحلت أبحث عن واحد أخدمه مخلصاً، وألوذ بحماه. ولكن أين ذلك البطل؟ ومن هو؟ وبدا لي أنه يمكنني العثور عليه في شخص الكولونيل بيهر، فعمله السري الخطير وثيق الصلة بقصص الجرائم ومذاقها الذي نمت فيّ منذ الطفولة. كما أنه كان للكولونيل بيهر، سحر عظيم، فقد كان رجلاً طويل القامة متين البنيان ذا وجه جذاب وابتسامة هادئة تتبعث من عينيه الرماديتين، وكان يتكلم بطريقة لطيفة وبسخريّة شيطان جريء. وكان قد أخبرني أنه حضر عدة اجتماعات للثوار متتكرراً في زي عامل وأن له جاسوسة بينهم، فذهبت إليه عارضاً خدماتي، فاستجوبني باختصار عن معلوماتي ولكن إجاباتي لم تكفه. ولم أسف عندما أخبرني أنني هيّاب خجول وإن يكن مركزي بين الموظفين المدنيين حسناً. وقال أيضاً:

- ستجد أنه من العسير النفاذ إلى صفوف الثوريين. فأنت «مدب» وحتى إذا أفلحت فلن تفلح طويلاً. -  
قد تنجح مرة أو مرتين.

كان في كلماته شيء غبي ألي، وبدا كأنه يتكلم كصياد يتكلم عن فريسة. قال:

- الثوريون أذكيا. ليسوا أغبيا أبداً.

وبعد لحظة من التفكير أردف:

- انقل إليّ بعض الأخبار عما يجري بين أصدقائك. - يكفيني ذلك الآن.

وبينما هو يودعني قال فجأة:

- بصراحة يا بني، الأمور لا تسير سيراً حسناً، وذلك لأننا معرضون لخطر النهب والقتل، بينما هم لا يعوضوننا عن ذلك إلا بما يفي ستراتنا وقمصاننا، فإذا أردنا أن نحيا حياتنا العادية، فنحن بحاجة إلى رجل قوي يقوم بمعجزة، حتى ولو كانت معجزة قسوة.

وتركته متبيناً أنه ليس الرجل الذي أريد. وأسرت بكتابة خطاب إلى نوفاك، شارحاً حالتي العقلية ومطامحي. وكنت أعرف من الصحف المحافظة أنه يلعب دوراً هاماً بين دوائر المعارضة كنت واثقاً من أنني سأحصل على نصيحة طيبة منه. وقد استلمت برقية منه تقول:

- احضر حالاً. سأنتظرك

وهكذا جلست ثانية أمام ذلك الرجل الذي لم أراه منذ خمس سنوات. وكان كما هو لم يطرأ عليه تغيير: فما زالت النظارة السوداء تخفي ثلث وجهه الصغير الطفلي. وربطة عنقه منحرفة عن موضعها. ولكنه ازداد نحافة. فالجلد الذي يكسو وجهه وجبهته بدا منه العظم، وشعيرات رأسه النادرة بدت بلون الرماد. حتى حجرته لم تكن تختلف عن الحجرة التي كان يشغلها في مدينتنا. فقد كانت كئيبة مثلها مزدحمة بالكتب، وتتوسطها منضدة ولكن نوافذها لا تشرف على حديقة. بل يواجهها حائط أحمر. وكانت هناك مدفأة في أحد جدران الغرفة تعلوها نافذة زجاجية قذرة. كانت مكاناً بغيضاً جداً غير ملائم للسكنى.

وجلست أمام المنضدة وضوء المدينة الصاخبة تصم أذناي وضبابها يغشي عيني واستمعت إلى الصوت اللين المألوف. كان الوقت نهائياً. حوالي الثالثة بعد الظهر. ولكن المصباح كان لا يزال مشتعل على المائدة.

وأخذ نوفاك يروح ويجيء متعثراً في نعاله البالي. ويدها في جيبه. ويسألني:

- ماذا تريد أن تعمل؟ ماذا تريد أن تضمن؟

وقد وجدت الكلمات المناسبة لإجابتي دون تفكير وعلى غير انتظار.

- أريد أن أحمي نفسي من كل ما يعاديني.

فقال وهو واقف في مواجهتي منكس الرأس:

- فاهم. فاهم. هذه إجابة رجل.

وفي كلمات قوية أعاد على مسامعي كل الأشياء التي لا أزال أذكرها، والتي تأملت طويلاً فيما بعد. فقد جلس على حافة المنضدة متجهاً إليّ، يهزّ قدمه في إيقاع مع كلامه، وقال هذا الكلام على وجه التقريب:

- إنّ ذوي المطامح والذكاء لا يجدون مكاناً يلائمهم في الحياة، إنّ ذوي الإيمان الكبير بالعقل الناسين للعنصر اللاعقلي في الحياة يتوقون إلى القوة - إنّ الرغبة المشروعة لكل ذي وعي هي أن يكون أكثر أهمية من العاديين. ويخطئ قادة الإنسانية الذين يعيدون تنظيم الدول على أساس المعونة المتبادلة خطأ تنتج عنه حتماً نتائج سيئة. وتنتج الغلط لأنّ الاشتراكيين. بإثارتهم رغبة القوة في الكتل، يتوهمون أنهم يثيرون طاقة العقل، بينما هم في حقيقة الأمر يثيرون فيهم الغرائز وحدها: الحسد، والغضب، والانتقام... الغرائز وحدها. ونزع يديه من جيوبه، ونشر أمام وجهي عشرة أصابع ملتوية، وقال:

- ليس في الكتل غريزة الهدف الاشتراكي، لا، إنها لم تتم فيهم بعد. بالنسبة لرجل من الكتل ليس ثمة حاجة للدولة، كما أنه ليست هناك حاجة إليها فيك أو في. ولكن أنت وأنا نقرّ ضرورة تنظيم الدولة، بينما أولئك لا يقرّون بأي تنظيم كهذا. كل الناس فوضويون بطبيعتهم، وكلما امتدّ بهم العمر أصبحوا أكثر فوضوية ولكن الإنسان يعرف أنّ الوقت لم يحن بعد للتحرر الكلي من كل سلطان. ولا يحين الوقت إلا عندما تنقسم الكتل إلى أفراد شاعرين بقوتهم وأهميتهم. وبحقهم في أن يعيشوا وفقاً لقوانين روحهم.

وسألني وهو يزداد انحناءً عليّ:

- لعلك قد أدركت السبب في أنّ غلطة الاشتراكيين مجرمة ولماذا يمكن للملكية الغاشمة أن تعجل بنا أسرع من غيرها إلى الفوضوية، وعدم التدخل، والحرية الكاملة للفرد؟ فكّر في كلامي وسوف ترى أنه ليس شاذاً. فكل الحقائق الحديثة العهد تبدو شاذة أول الأمر. وأخصها أنّ الفرد سيبقى عدواً للناس حتّى تتمزق الكتل إلى ملايين من الأفراد المستقلين.

ونزل من على المنضدة، وأخذ يروح ويجيء في الحجرة، شاحباً مسطحاً كالخيال، وبدا في العتمة أشبه بكائن من عالم آخر. وذكرني بأحد أولئك الرجال السحريين الناكرين أنفسهم الذين قرأت عنهم في الكتب قراءة عابرة، وكانت حياتهم مجهولة لا يفهمها الناس وكان القدر عليهم قاسياً. ونصحتني جاداً في نصحه ولا أعدو الحقيقة إذا قلت إنه أمرني بأن أقرأ دوستويفسكي، ولينينيف، ونيتشه قال:

- أجل؛ هؤلاء خاصة! إنهم فوضويون في جوهرهم، ملكيون خلال ضرورة تحقيق الفوضوية.

ثمّ أخبرني أنّ هناك شخصاً يحتاج إلى كاتم سر متواضع مخلص.

- إنّ ردمنتوف يشغل هذه الوظيفة الآن - أتذكر صاحبنا ردمنتوف؟

فسألته مندهشاً:

- ردمنتوف؟

- أجل، إنه رجل شارذ الذهن مهمل، كما أنه يريد أن يتزوج، ولكنه ماهر...

فكرت في ردمنتوف أثناء سيرتي في الضباب الذي تضيئه المصابيح الكهربائية الشاحبة. ألم يحكم ردمنتوف عليّ بالغباء؟ والآن هناك شخص سيقدر ما إذا كنت أغبي من ردمنتوف أو لا وكان هذا الرجل بارز عظام الوجنتين، ذا ذقن كثّ أسود وجسم دب ثقيل الحركة، وتبرز شفته السفلى الممتلئة من ذقنه، أما شفته العليا فكانت مختفية تحت شاربه. وأذناه كبيرتان كبيراً زائداً ومنفرجتان بانتباه كأنما تصغيان إليّ ما أفكر فيه لا إليّ ما أقول ونظر إليّ بثبات نظرة موجهة إلى بعيد، وقد لاحظت هذه النظرة دائماً في سائقي السيارات. وكانت يده نظيفتين لامعتين، حتى أشبه جلدهما قفازاً جليداً، قال لي وهو يقرض أظفاره بهدوء ووضوح زائدين:

- عليك توصيات قوية فيجب أن تعمل بموجبها. لا أطلب منك غير الانتباه والتواضع. وأن تدون ما أضبطه من وقائع.

وضغط الجرس الكهربائي بحرص. وبدا لي أنه قام بهذا العمل بسرور زائد، كالطفل. ودخل ردمنتوف الحجرة وأشار إليّ ناحيتي.

- هذا من سيحل محلّك، وصلت الآن فيما أعتقد؟

فأجابه ردمنتوف بالإيجاب.

وفي الحجرة المزدهمة بالدواليب. التي تطل نافذتها على الميدان، صاح ردمنتوف بي مندهشاً:

- أنت؟

قلت:

- كيف حالك؟

فلم يرد تحيتي ولم أسأله عما أثار دهشته. ثم علمت أنه ترك الجامعة قبل أن يفرغ من دراساته وذهب إلى إيران لسبب ما، حيث مكث سنتين. وقال وهو يفيض بعض الأوراق:

- ربما تكون بعض أوراق الخاصة قد وجدت طريقها إلى هنا داخل المظروف الأصفر. فإذا وجدتها استدعني فأحضر لأخذها.

وفيما هو يشعل سيجارة ويخلع قفازه قال «إلى اللقاء» قالها عرضاً وبجفاء واضح، أجل، فالخجولون الجبناء دقيقو الملاحظة. وذهبت إلى النافذة ونظرت إلى الميدان حيث الناس يمشون في كل اتجاه، ويتكع بعضهم كالضفادع، وبدوا كلهم في الضباب أكبر من حقيقتهم ومستديري الشكل، وسررت لأنني لست بينهم، بل فوقهم، ووحيداً في حجرة دافئة لا تصلها ضوء المدينة العالية.

وشرعت في إخراج الأوراق وفحصها، وكنت تواقاً إلى العثور على أوراق ردمنتوف. ولكنني لم أجدها وظللت طيلة سنتين أمل أن تقع بين يدي أوراق ردمنتوف وأعرف سبب قلقه عليها. وممّ كان

خائفاً؟ ولكن ردمنتوف غرق أثناء سفره على يخت. وكنت أتمنى أن تنتهي حياته نهاية أسوأ من هذه. وكان من الشائق أن أفصّ بعض الأوراق وأطالعها. وقد أثارني إلى أبعد حدّ مشروع لإعادة تنظيم الدولة: كان يقترح فيه أن تقسم روسيا إلى مقاطعات وينصب على كل منها أمير، له سلطات الحاكم. فذكرني هذا المشروع بالعهد الرومانسي البائدة، عندما كانت روسيا مقسمة إلى مقاطعات. واستغرقتني القراءة فلم أسمع رئيسي وهو يفتح الباب ويدخل الحجرة ولم أفق إلا عندما سمعت صوتاً واضحاً يرن في السكون:

- لا حاجة بك في قراءة المستندات، فالمختصون لديهم قائمة تفصيلية بالمحتويات. هاك ما يجب عليك أن تقرأه أمّا الباقي فلا أهمية له.

وتحدث زهاء خمس دقائق بهذه اللهجة الهادئة القاسية، وهو يفحص أظافره، ويدعك إحدى يديه بالأخرى. كان من الواضح أنه يحب يديه. ثمّ قال:

- لتكن أمامك دائماً قائمة بأسماء الأشخاص الذين يعنيني أمرهم. كما أنّ عليك استقصاء كل ما يقال عنهم ويقولونه.

واستمعت له واقفاً. وذهب دون أن يسلم عليّ أو يودعني. فلم يؤلمني تصرفه هذا. فقد أحببت طريقته الهادئة المنهجية في الكلام. وأحسست بالقوة في جسمه الثقيل وحركاته البطيئة. وأثارني الغموض الذي يحيط به.

وقضيت ست سنوات في الحجرة المجاورة لمكتبه، التي أضحت أشد ازدحاماً بالأوراق، وخلال تلك الفترة عادت الأمور في روسيا إلى نصابها. وكنت محقاً في اعتقادي أنّ ذلك يرجع إلى عمل رئيسي ومعونتي المتواضعة. وبدا كأنّ الحياة عادت إلى مجراها المعتاد أكثر هدوءاً وحرية، لأنّ الحرية تعني الهدوء. ففي شوارع المدينة يشعر المرء أنه أكثر حرية بالليل منه بالنهار. ليست هذه ملاحظة ساذجة أو نكتة - لا.. فملاحظاتي مستمدة من الاهتمام الصادق الدائم بالإنسان: فهو يريد أن يحيا حراً، والفوضى تحدّ من حريته. إنّ الإنسان يكون أكثر حرية عندما يكون بعيداً عن الناس.

لم يعد هناك شك في أنّ رئيسي يلعب دوراً هاماً مستقلاً في الظاهر بين دوائر الملكيين. كان يعيش في أربع حجرات من منزل ذي خمس طوابق سكانه مناسبون لمدينة إقليمية صغيرة. وكانت ساشا ابنة البوّاب تعنى بشقته، وهي شابة حمراء الشعر نحيلة مستهترّة. ولم أره يستقبل زائرين في منزله إلا بضعة نفر لا يتجاوزون أصابع اليد من ذي الأسماء المعروفة. وكان يجلس في مكتبه وحيداً صامتاً هادئاً من العاشرة إلى ما بعدها يكتب ويقرأ ويفحص بريده هائل الحجم دائماً. وكان يخفي عدداً معيناً من الخطابات، وخاصة المهم منها في مكتبه أو في صيوان كبير متين. وكانت تصله رسائل من الحكام وكبار رجال الدين، وتدعوه المسرة من وكالات الوزارات، ومراكز البوليس العليا، فيرد عليهم كما يفعل معي، بلهجة ذي السلطة والنفوذ. ويذهب في الساعة الثالثة ليتغدى في مطعم ويعود في كل مرة ليري بريد المساء. وكنت أغادر مكنتي مثله في الساعة الثالثة وأعود إلى عملي في السادسة، وأظل أمارسه حتّى الثامنة، أنسخ خطابات رئيسي على الآلة الكاتبة، خطابات

المؤيد للملكية عن عقيدة، المؤمن بقوة فكرتها وكان يكتب بأسلوب ثقيل ذي جمل طويلة، ويستعمل عادة كلمات مهجورة، كان يقول مثلاً:

- لما كانت روح الثورة هي روح الجنون الواضحة، فإن مصدرها الحسد والطمع في مناعم الحياة، أعني أن معينها يكمن في ناحيتها المادية، وتثيرها أغراض أعداء النظام المقدس، وسيكون من الملائم أن تتعطف نيافتك فترسل مرسوماً من أبرشيتك...

وكان رئيسي يرسل خطاباته وتقاريره إلى نوفاك ليراجعها، فيعيدها مذيلة بعدد لا حصر له من الحواشي، وموضحة ببيانات وفقرات تاريخية.

وعلمت أنه يعمل مراقباً اختيارياً لتطور التفكير الثوري. فكان يراقب نموه وانتشاره. وهو متخفّ بين ممثليه فكان يحتفظ بدستة من أسمائهم مكتوبة في ورقة على حدة، وكان عليّ أن أتتبع خطبهم في مجلس الدوما، والصحف أو فيما يلقونه من محاضرات. ولم يكن يثق في فروع الحكومة التي أقامتها لمحاربة الثورة. وينظر إلى رجالها باحتقار. وذات يوم فيما هو يودع نوفاك، قال:

- لقد اختبأ بعض المغفلين في إدارة البوليس.

عشت بجانبه راضياً فقد أحببت عملي. وبرعت في تمزيق القناع عن الأفكار المستترة. وتعرية النظريات الفاسدة، المسمومة المدمرة، وذلك بوضعي خطوطاً تحت عبارات وكلمات معينة. وكان نوفاك يزور رئيسي أكثر من غيره، وبدأ لي أنه يتعمد المجيء في الأيام الضبابية أو العاصفة. وأنه لما يسترعي النظر مشية هذا الرجل العظمى الشبيه بالشبح على الأرض دون أن يحدث صوتاً. وبدت لي عادة وضع يديه الباردتين الجافتين في جيبي سرواله ذات مغزى ورمز. فقد رأيت فيها كراهية رقيقة للاتصال بالحياة. وأصبح تأثيره الروحي أكثر وخطراً. وكنت ألحظ هذا التأثير في كل الصحف التي تدافع عن قواعد الملكية ومبادئها، ووضح لديّ أن رئيسي، الذي كان يديرها بخار نوفاك. يعيش على ذلك التأثير ويتنفس من خلاله.

وذات يوم، فيما هما يودعان بعضهما في حجرتي، قال نوفاك هامساً كما هي عادته:

- على المرء أن يشير إلى أنه على مرّ القرون وفي كل البلاد، عوقبت أخطاء العقل الشديدة بالموت، أقول بالموت.

فأجاب رئيسي:

- هذا ما حدث فعلاً.

- أجل، ولكنه تمّ بطريقة جانبية ففقد خاصته التهديدية. تجب العودة إلى علانية تنفيذ الأحكام. فقد كان الناس فيما مضى ينفذون أحكامهم علانية، ولا يخاف جلاؤهم شيئاً. إن عدم الخوف يقيم عدالة الفعل. نعم. إن الأقلية تجرم علناً فتخلع على جريمة القتل التافهة حلة من البسالة والإقدام، ومظهر

العمل البطولي. والأكثرية، بامتلاكها حق العقاب لأنها أكثرية، تنفذه سرّاً وخفية، فتحوّل فعلاً طبيعياً  
شريعياً من أفعال الدفاع عن النفس إلى جريمة. أرايت إلى بلاهة هذا التصرف وسخافته؟ وربما  
الجبن...

ثمّ استطرّد قائلاً:

- والتعذيب. التعذيب العلني المكشوف، في رائعة النهار. أجل.

فدعك رئيسي يديه بظلف وأحنى رأسه موافقاً. وعندما انصرف نوفاك، قال وهو يمرّ بجواري:

- إنّ مدرّسك رجل عجيب.

آه، حقاً، لست أجهل ذلك. فعندما أرى نوفاك يتبدد خوفاً من الرجال، ويحلّ محله خوف مقدس من  
مدرسي الذي أصبح أشد نحافة فشابه الخيال.

وكنّت أحترم رئيسي. فقد كانت حياته في نظري عملاً من أعمال البطولة لرجل مؤمن بفكرة مكرّس  
كل قواه للعمل العظيم الذي لا يقوم به غير الأبطال. وأمنت بأنه يساهم بقدر كبير في قيادة الحياة من  
مكانه المنعزل في الطابق الثالث من منزل يطل على ناصية شارعين، وفي مكتب ذي نوافذ تطل  
على الميدان الذي يمتد أسفله، وتموج فيه ضوضاء الحياة اليومية التي يحدثها رجال زائلون  
يزدحمون على الأرض. صحيح أنه آلة يديرها بخار نوفاك. ولكن فتنتني هدوءه الحديدي الجامد،  
وطريقة كلامه التي ينطق بها كلمات لا تتغير تحوي أفكاراً لا تتبدل.

ولكنه فجأة فقد سلطانه عليّ وشعرت بذلك كما أشعر بضربة مؤلمة في قلبي. فعندما قتل مخبر في  
إدارة الأمن وزيراً في كيبف (1). اندفع إلى حجرتي أزرق الوجه من الشحوب، مغمض العينين،  
ملوحاً بيديه الكريهيتين، ضارباً الأرض بقدمه، وصائحاً بخشونة ووحشية:

- لقد قتلوه، الموت لهم...! لقد كتبت، ألم أكتب؟ قلت لهم... أسمعني؟ قتلوه... وذلك مبتغاهم! الأمن!  
حقاً! ليذهبوا كلهم إلى المقصلة!

لقد كان الإحساس بالخوف من الأحاسيس الأليفة إلى قلبي، فتبينت في الحال أن ثورته هذه سببها  
الخوف. فقد اندفع إلى حجرتي وضرب الباب في عنف لدرجة أنّ خريطة روسيا المعلقة في حجرتي  
سقطت من مكانها أعلى الحائط. ثمّ غادر المنزل ناسياً عصاه.

وتغير شعوري نحوه بطبيعة الحال. فلم يمكنني نسيان وجهه المزرق من الرعب الجنوني. وبدأت  
أعامله بطريقة أقل استسلاماً وخضوعاً عن ذي قبل. فحاولت مرة أو مرتين تحسين أسلوب خطاباته  
الممل. فظهر أنّه لم يلحظ شيئاً، وأخذت أحداثه في الحوادث اليومية. فبدت عليه الدهشة. فقد ثبت  
فيّ عينيهِ الكموكيتين وفاه شيئاً على سبيل الإجابة، وعندما كتب ليخبر الوزير بأرائه عن ضرورة

حل مجلس الدوما، سألته عما إذا كان لم يفته أن الوزير الجديد يعارض هذا الرأي بشدة، فسألني غاضباً:

- «أحاول بأيّة وسيلة أن تعلمني عملي؟».

ولكنه، عندما عاد إلى مكتبه، فتح الباب، وقال لي وهو واقف على عتبه برقة ولين:

- «إن مقاصد الوزير الحقيقية معروفة لي جيداً».

فانحيت صامتاً:

- «ويمكنني يا مكاروف، أن أقول إنني راضٍ عن عملك تماماً. فهو يتحسن يوماً عن آخر. أشكرك».

وشعرت أنني انتصرت، ولم أستطع صرف نفسي عن التفكير في أنه قد خجل من ثورته، وخائف من أن يكون قد ألمني.

وعدل منذ ذلك اليوم عن معاملتي معاملة الآلة، فقد اتضح له أن أمامه رجلاً. ولم يمض وقت طويل حتى سألني باللهجة التي يستفهم بها المرء عن صحة الناس.

- «أنت متزوج؟».

- «لا».

- «هذا شيء حسن» واستطرد، ففي أيامنا هذه الزوجة حمل ثقيل على رجل يبحث عن مستقبله».

وبعد دقيقة من التفكير، أردف:

- «نعم، نحن في معركة، أشبه بالجنود في ساحة القتال. يجب أن تكون على انتباه، وأيضاً..».

وذاًت يوم سألني مهموماً عن وضعي بالنسبة للتجنيد، وقال:

- «من المحتمل جداً أن ندخل الحرب قريباً».

وشكرته مندهشاً ومسروراً. الحرب عملية جراحية - فهي تستأصل الأجزاء المتحللة من جسم الدولة. وأشرت إلى أننا لو خرجنا من الحرب منتصرين، فسوف ننتصر على الثورة. قال وهو يدعك يديه:

«بالتأكيد. هذا ما يجب أن يفكر فيه المرء، سننتصر يجب أن يؤمن الإنسان بذلك، وفي هذا الوقت الحرب نافعة ولا شك للملكية».

فعبّرت عن أمني في إرسال العناصر غير المرغوب فيها سياسياً إلى الجبهة الأمامية - كالطلبة والعمال الذين لهم صلة بالحركة - أليس كذلك؟

- فكرة سيّدة. لو لم يستطع المرء أن يستفيد من أخبار إدارة الأمن والبوليس، وقوائم نقابات العمال...

آه...

ولأول مرة رأيت الطريقة التي يبتسم بها. فقد تداثت شفته السفلى، وارتفع شاربه كاشفاً عن صفّ من الأسنان الصغيرة المنظمة، وأغمض عينيه «ولكن وجهه الكث ظل جامداً فلم تهتز إلاّ تجاعيد جبهته لعدة دقائق».

- لا أريد التحدث هنا عن كابوس تلك الحرب الجهنمية. لو دخلنا الحرب مع ألمانيا ضد أوروبا لسحقنا الثورة كسلة بيض فاسدة ولأصبح العالم في أيدينا العالم بأجمعه! لم تحدث غلطة مميتة كهذه من قبل، إنّ التفكير فيها مؤلم يحرق الروح حتىّ تصوير رماداً. فقد كشفت لي الحرب تشويه الوطن وبؤسه الشنيع. نحن بين حشود الرجال لم يوجد واحد يستطيع أن يكبح جماح الفوضى، ويسود حتىّ لو اضطره الأمر إلى إبادة نصف السكان الذين يأكلون ويشربون، وينامون وينتجون مخلوقات شبيهة بهم، فاسدة مثلهم، وعلى استعداد في سبيل هذا الغرض الحيواني أن يدمروا كل شيء لا يدخل أفواههم الشرهة التي لا قرار لها.

وشاهدت الثورة وهي تنمو، فقد كانت صحف الأحزاب كلها تصيح عنها، بعضها في يأس، وبعضها الآخر في استبشار. ورنّت أصداء الثورة منتصرة حتىّ في الكلمات التي اشتكت بها المعارضة في مجلس الدوما والصحف.

كانت هذه الشكايات أشد زيفاً من كل ما عرف من قبل وتزايدت وقاحتها وبذاعتها. وبدأ الناس يشعرون بضباب العاصفة المتجمعة ودخانها في كل مكان، وتبينت أن لن تستطيع تبديده خطابات رئيسي إلى الحكام والوزراء والأساقفة. وتزايد عدد المنظمات الاشتراكية وأخذ السوس يقرض فروة الأرستقراطية.

وفي مراقبتي للميدان من نافذة حجرتي، رأيت الناس قد تغيروا. فرغم أنهم كانوا ضالاً كما هم ومشوهين من خلال الضباب إلاّ أنّ حركتهم كانت أشد كثافة وأكثر سرعة. وفي المطعم حيث أتناول طعامي، لاحظت أن فكرة القضاء على حياة الدولة قد ازدادت جراءة وانتشاراً، وكان من الواضح أنّ مصدرها مجلس الدوما الذي يفسد ويغوي عقول الجماهير بنقده الوقح الغبي. كنت أحب الذهاب مساء إلى الخيالة حيث أرقب في الظلام حياة الظلال السوداء وهي جالسة في مقاعدها، مستعبدة بمخاوفها الوهمية أو غبائها الذائد وتحيا حياة لا تضطرهم إلى التفكير فيها. إنّ للسنيما تأثيراً عجبياً فهي تمحو انطباعات الحياة من عقل المرء كما تزيل المكينة التراب.

وحتى في السينما لاحظت تأثير الحركة المعادية المقصود. فقد كانوا يعرضون مدناً أجمل من مدننا، فعرض مدينة منظمة نظيفة كالدمية، يتعلم منه الروس أن يوازنوا وينتقدوا. وأثير عدم الرضا عن الحياة في كل مكان وبكل الطرق، وتذكرت كلمات كولونيل بيهر:

- لن يتوقف هذا إلا بمعجزة، قد تكون معجزة قسوة علنية.

ولم يكن رئيسي الرجل الذي يستطيع القيام بمعجزة قسوة علنية. لا، ليس هو بالرجل المنشود! وقد تبينت هذا بوضوح تزايد يوماً عن يوم. ولما أضنني شعوري بالخيبة والعجز ذهبت إلى نوافك لأفرغ أفكاري بين يديه.

فقال وهو واقف بجوار النافذة القائمة في ركن من أركان الحجرة، طويلاً نحيلاً:

- أجل، إنك محق. فليس هناك رجل ولا واحد. لدينا فقط أصحاب نظريات ونقاد. ولكن رجالاً حقيقياً ذو إرادة لا يوجد.

ونفذت أشعة الغروب من خلال زجاج النافذة المعتم رمادية خضراء... وبدا نوافك أشد نحولاً. ووجهه يحكي وجوه الموتى، ورنّ صوته أصم قاتماً، ولم يستطع أن يقول شيئاً يؤكد قوله، وشعرت أنه في حالة هبوط شديد. وعندما خرجت إلى الشارع اجتاحتني موجة من القسوة الحادة تقرب من الجنون. وانتفضت غضباً، وأردت أن أصيح في المارين، كما يصيح المرء في الكلاب.

- سحقاً لكم.

وجلست طويلاً على مقعد من الجرانيت بجوار نهر النيفا، وشعرت أنني قوي. وأني أعرف ما يجب عمله مع الناس. كل هؤلاء الناس يعيشون في خوف من الفقر والجوع، والغناء، والموت، والباقون ينتسبون، نعم ينتسبون إليهم على أنهم مخترعو «الأفكار» ليواسوهم فقط، ليخدعوهم حتى لا يصيبهم الجنون، ويصبحوا في خوفهم متوحشين، فيتوقفون عن العمل في سبيل النوع الإنساني عندما يتبينون مدى بشاعة حياتهم وخلوها من أي معنى.

من المحتمل أن تلك الأفكار تولدت في رأسي ليلتها، فهي لم تكن معروفة لي من قبل. وتبينت في الحقيقة، أن الرجل الفرد هو أيضاً جبان، مهما كانت قوته. من الجائز أنه لا يخاف نفس الأشياء التي يخافها الناس، ولكنه يخاف الناس. إن التاريخ حافل بأسماء كثير منهم. ولكنهم غرباء عن الناس إن الخوف من الناس يعطي المرء الحق في أن يكون قاسياً عليهم قسوة لا رحمة فيها، يعطيه حقاً مشروعاً لأن أساسه غريزة الدفاع عن النفس لقد كان إيفان المرعب جباناً ولا شك، مثل كل من يقال عنهم طغاة. فسياسة الجبناء هي دائماً سياسة القسوة، وكل السياسيين قساة. هذا حق مشروع لا يجادل فيه. لا يستطيع أن يعمل بعزم وتصميم غير من يشعر بخطر الحياة ويعرف جيداً ما الخوف. ربما تكون بطولة «الأبطال» هي التعبير عن يأس الإنسان. بل بالتأكيد ليست البطولة إلا العمل اليأس للرجل الخائف.

أجل، لو كانت لدي قوة، لتركت ذكرى مرعبة مذهلة عن نفسي في التاريخ، ولكسفت مجد كل طغاة العالم، ولغسلت الناس وكويتهم كالمناديل.

يخيل لي أنه منذ تلك الليلة أخذت الحياة تتغير بسرعة، وتحوز تدريجياً خاصة بطولية. وظهر شيء ساخر على وجوه الناس الجامدة وشيء إجرامي في نفوسهم، وبتعبير دقيق شيء يتوقع. ماذا يتوقع؟ ربما كانوا يحلمون بأن يصبحوا أقوياء، مقدمين قادرين على أن يخطو خطوة خارج الدائرة المغلقة. أو لعلمهم كانوا ينتظرون الرجل الذي يستطيع أن يخطو تلك الخطوة. ينظرون القائد الذي يستطيع التأثير فيهم بكلامه وقيادتهم.

ومرّت شهور توقعت فيها أن يحوز رئيسي هذه الخاصية. ولكنه أطار هذا الاعتقاد، فقد كبح نفسه، وازداد نحافة، وأخذ يدعك يديه أكثر من ذي قبل وبقوة أشد، واندلع شعاع أزرق خائف من عينيه الكلموكيتين، وكثرت رؤيتي لبريق أسنانه. المرح الجائع. وطوال الليالي كنت أنتظر شاعراً بقوة اليأس تزداد في قلبي، قوة الخوف التي تجعل الأبطال والحكام سادة الملايين. أه، لو حدث ما توقعه، لرأى الناس رجلاً مرعباً حقاً.

ولكن حدث أمر آخر. فقد تقيأت منازل المدينة كل سكانها إلى الشوارع، واندفعت كتلة سوداء هائجة جائعة جشعة إلى الميدان وظهرت ساريات الأعلام، واندلعت طلقات قليلة، وتزايد ظهور الأعلام والطلقات. فذكرني كل هذا بدكان الجزائر. واندفع نوافك إلى حجرتي منحنيًا كالشيطان والكلمات تتطاير من شفتيه، وأخذ يصيح ويدفعني نحو مكتب رئيسي قائلاً:

- ماذا تفعل بجلوسك هنا؟ مزقها، احرقها! هل جننت؟ هناك ثورة... لقد قبضوا عليه أين خطاباتي؟ مزقها.. أو.. القها في النار.. أوه..

وغرق في الكرسي المجاور للمدفأة، ونزع عويناته ووضعها على ركبتيه، وأخذ يتأوه قائلاً:

- مزقها.. لماذا لا تتحرك؟ دمرها، احرقها...!

ولأول مرة رأيت عينيه: كانتا صغيرتين، لا لون لهما، ولا أهداب، ومنطفتين، مخنقتين في جيبين صغيرين أحمرين، ولعلمها مملوءين حديدًا. فحصتهما بسرعة وبانتباه زائد. ثم جذبته من بنيقته، ورفعته من كرسيه. وهمست في عينيه:

- يا وغد.

وشعرت بقدمي ترتجفان، وسمعت صفير العاصفة الثلجية الممزق في قلبي نفاذاً شريراً. وأعدت قولي وأنا أهز مدرسي:

- يا وغد. أنت معلم الأبطال؟ آ؟ أين أبطالك يا سافل؟

فتلوى، وخذش يدي بأظفاره الحادة وعوى:

- أتجرؤ؟ لست الملموم.. أيها الثوري. ابعء... يا خائن..

فقلت بسرور لم أعرفه حتى تلك اللحظة:

- يا نذل... كنت خائفاً منك، وصدقتك، صدقت أنك قوي ورهيب. ومن أصدق الآن؟ ممن أخاف؟ لقد قتلت الخوف في نفسي، قتلت الإنسان في نفسي يا وءء! وتركته بعد أن طرحتة في ركن الغرفة.

وقد قضيت سنة في السجن، وهناك قابلت جماعة من رؤساء العصابات، وساعدتني معرفتي بهم على التحرر، وأمدتني بعمل عن الإمكانيات «الإجرامية». وقد قتلت عدداً قليلاً من الناس، وأنه لعمل سهل. وها أنا ذا الآن رئيس عصابة. وقد أصبح غداً جلاءاً. فالأعمال واحدة ومن النوع نفسه.

## الكتاب الثاني

### كرمورا

«أنت تعرف أنني قادر على أعمال البطولة، حسناً! يمكنني أن أقول الشيء نفسه عن السلوك الحقيير المنحط، فالمرء يشوقه أحياناً أن يمعن في خداع إنسان آخر، حتى ولو كان أعز أصدقائه».

(كلمات المخبر السياسي زخار ميخايلوف، موجهة إلى رئيس قلم المخابرات عام 1917، انظر مقالاً كتبه ب. أوسيبوفسكي في مجلة بيلوى عام 1922، المجلد السادس).

«إن الأفكار الشريرة الحقيرة تبرق أحياناً في عقل الإنسان، دونما سبب وعلى غير انتظار».

(ن. إ. يروجوف)

«... دعني أسلك سلوك وغد».

(أحد أبطال أوستروفسكي)

«العمل الحقيير كالعمل العظيم يحتاج إلى قدر من نكران الذات».

(من خطاب لليونيد أندرييف)

«لا يعرف المرء شيئاً عن إنسان من خلال سلوكه المتعمد المقصود، فأفعاله الاندفاعية العشوائية هي التي تكشف عن ذاته الحقيقية».

(ن. لسكوف في خطاب له إلى بيلاييف)

«إنه روسي مندفع، لا يلتفت يمناً أو يسرة».

(إ. تورجنيف)

\* \* \*

كان والدي حداد أفعال، طيب القلب، كثير المرح رغم ضخامته، يبحث في كل إنسان عن شيء يضحك منه. وكان مغرماً بي وسماني «كرمورا»، على اسم بعوضة كبيرة، بحجم العنكبوت. فقد كان توزيع الأسماء المستعارة على من يحيطون به أفضل تسليية لديه. وكنت صبيّاً طويلاً نحياً. تسليتي المفضلة صيد الطيور، محظوظاً في الألعاب وسريعاً في العراك.

لقد أعطوني قصاصات من الورق، لأدوّن فيها اعترافاتي وأروي قصتي، ولكن فيم تفيدني الكتابة ما داموا سيعدمونني؟

المطر ينهمر... وتزحف أعمدة وسبحات منه إلى المدينة من الحقول. ولا يمكن رؤية شيء من خلال نقابه الكثيف المبتل، والرعد وأصوات أخرى تفرقع خارج النافذة، والسجن يخيم عليه السكون، والمطر والرياح يدفعانه، فكأن البناء القديم ينزلق على سطح من صابون منحدرًا من الرابية إلى المدينة. أمّا أنا فأشعر شعور سمكة وقعت في شبكة...

الظلام يتكاثر. فماذا أكتب؟ شخصان عاشا في داخلي، ويأبى أحدهما مع الآخر اتفاقاً. ذلك كل ما في الأمر. وربما كان الأمر غير ذلك. ليكن ما يكون، فلن أكتب: لا أريد. كما أنني لا أعرف كيف أكتب. وأسجاف الظلام كثيفة تحول بيني وبين الكتابة، لا يا كرمورا! أجدى لنا أن ننشر مكنوناتنا، فلندخن ونفكر قليلاً في الأمور...

ولندعهم بعد ذلك ينفذون إعدامهم...

\*\*\*

لم أنم الليلة بطولها، فهواء السجن يخنق الأنفاس، وقد ألهبت الشمس الأرض بقسوة بعد انقطاع المطر لدرجة أن تدفق من الحقول إلى نافذة الزنزانة بخار رطب. كأنه يتصاعد من رجل. وشعّ الهلال في السماء كالمنجل، مذكراً إيايّ بشارب بوبوف الأحمر.. أنفقت ليلي أتأمل ماضي حياتي. وهل غير التأمل شيئاً أفعله؟ إنه أشبه بالتطلع من خصاص خلفه مرآة ينعكس فيها ماضٍ. تذكرت ليوبولد مدرسي الأول. كان طالباً يهودياً هزياً، مصدوراً ضعيف البصر، ذا وجه مستطيل صغير، وأنف أفتى معوج يبرز من تحت عويناته السميقة وكنت حينذاك في التاسعة عشرة وكان يصغرنى بسنتين أو ثلاث. ويبدو مضحكاً جباناً كفأر صغير.

وكان من أعجب الأشياء مراقبته وهو يزيح أقنعة الزيف بجسارة ومهارة، ويقرض الروابط الخارجية التي تربط الناس بعضهم ببعض. ويكشف حقيقة الخيانات المرة التي لا تعد بين إنسان وآخر.

وكان من أولئك الذين يولدون والحكمة في أفواههم، جامع الهوى في اتهامه للأكاذيب الاجتماعية. وكان يرتجف من رأسه إلى قدميه وهو يفض الحياة أمامنا.

وكنت صبيّاً مرحاً لا أحب الإصغاء لكلامه. راضياً عن الحياة، لا أحسد أحداً، وأكتسب دخلاً يكفيني. وأرى الطريق أمامي يمتد كمجرى نهر صافٍ. ولكن هذا الفتى اليهودي ظهر فجأة وعكّر مياهي. وضقت وأنا الفتى الروسي القوي بهذا الغريب المحتقر الذي يقف مني موقف الأستاذ يعلمني. ويحيرني كأنه يدس الملح في جلدي. ولم يقصد تجريحه، فقد كان واضحاً أنّ ما يقوله حق. أو لعل السبب كان رؤيتي أربعة فتیان قابعين حولي صامتین كالغربان الصغيرة.

كانت أغلب الحرف في مدينتنا بين أيدي اليهود. ولذا كانوا مكروهين. ولم يكن ثمّة داعٍ لأعطف عليه أكثر من غيري. فذات مرة، بعد أن فرغ ليوبولد من درسه وانصرف، شرعت أسخر من زملائي لاختيارهم له، ولكنهم تحاملوا عليّ، وثمرّة رابطة وثيقة بينه وبينهم.

وبعد أن تدبرت الأمر قررت الإذعان لذلك «الهواش» وغرضي الخفي أن أحقره أمام زملائي، لا لأنّه يهودي، بل لأنه كان عسيراً عليّ تصديق أن الحقيقة تعيش في جسد ضئيل هزيل كهذا. ولم يكن ذلك شعوراً جمالياً مني بل رغبة عضوية لمخلوق يخاف العدو.

وكانت هذه هي اللعبة التي وقعت في أحابيلها وضيعتني، فقد أصبحت النظرية الاشتراكية واضحة لي قريبة مني كأنّي اكتشفتها بنفسي. وها أنا ذا، وأنا أستعيد ذكرى الماضي، أرى أنّي في غمرة حماسة شبابي تخطيت نقطة دقيقة خطيرة. فلقد أثبتت النظريات الباحثة في طبيعة العقل أنّ الأفكار مستمدة من الوقائع. وقد قبلت بعقلي فكرة الاشتراكية، ولم ألحظ الوقائع التي أولدت في نفسي تلك الفكرة.

واعتبرت نفسي أحسن من ليوبولد، وأدكي من زملائي. اعتدت منذ طفولتي إصدار الأوامر. وكان سهلاً عليّ إجبار الآخرين على الطاعة. كانت تتقنني صفة لازمة للاشتراكي. بم يدعوها المرء؟ حب الإنسانية، أم ماذا؟ لست أدري. ولأصريح باختصار أنّ الاشتراكية لم تكن ثلاثمني. فقد بدت لي واسعة في نواح، ضيقة في أخرى. وقد صادفني في حياتي اشتراكيون كثيرون مثلي، الاشتراكية غريبة عنهم تماماً! هؤلاء أشبه بالزوائد، لا يهمهم إلى أي جهة ينضافون، فالمجموع في نظرهم دائماً على صواب. هؤلاء لا روح لهم، والأمر لديهم مجرد حساب. وأعني بكلمة «روح» فكرة متسامية حتّى الجنون، فكرة معتقدة، مرتبطة بالإرادة إلى الأبد وبلا حل. وأعتقد أنّ الخطأ في حياتي هو أنّه لم تكن لي روح كهذه، ولم أكن أدري ذلك.

كنت أدكي من زملائي. وأحسن منهم فهماً للكراسات العديدة التي توزع علينا، وأكثرهم سؤالاً واستفساراً وقد ساعدتني كراهيتي له كثيراً. فقد أردت أن أفوقه معرفة، لأكشفه وأظهر أنّ معلوماته ناقصة، بل مخطئة أحياناً. وأعاني طموحي هذا على التقدم سريعاً حتّى أصبحت في مدة وجيزة العضو البارز في مجموعتنا وأصبح ليوبولد فخوراً بي كأنّي مخلوق أبدعه عقله، وأكاد أقول إنه كان بي مغرماً.

وقد اعتاد أن يمتدحني قائلاً:

- إنك ثوري حقيقي صميم، يا بطرس.

كان مثقفاً كأنه قرأ ما في الدنيا من كتب، وكان ذكاؤه ملحوظاً أيضاً. وكان يعاني برداً وسعالاً متصلين. وكان نحيلاً قائماً كأنه عود يحترق، ينفث دخاناً متصلاً، ويقذف الكلمات ملتهباً كالشرر. واعتاد زوتوف أن يقول عنه:

- إن هذا الفتى لا يعيش، بل يحترق دون لهب، وليس ببعيد أن يلتهب في أيّة لحظة ويتلاشى.

وواظبت على الاستماع إلى ليوبولد بنهم، وانتباه عظيمين، وبرغبة في إيدائه. كنت أقول له مثلاً:

- إنك لا تتفك تتحدث عن الرأسماليين الأوروبيين. ولكن يبدو أنك تتناسى أن اليهود منهم!

فكان الشحاذ الفقير ينكمش. ويزوي عينيه الحادثتين الصغيرتين ويقول إن الرأسمالية وإن تكن عالمية، إلا أن أناساً مثل لاسال وماركس أقرب إلى اليهود منهم إلى الرأسمالية.

وقد لامني على عدائي لليهود حين التقينا منفردين، ولكنني أجبتته بأن سكوته عنهم قد لاحظته الآخرون أيضاً. وكنت في قولي صادقاً.

وبعد ثمانية أشهر من بدء تدريسه لنا قبض عليه، مع آخرين من أعضاء «الأنتلجنسيا» وقد قضى سنة في السجن، ثم نُفِيَ إلى الشمال حيث مات. كان واحداً من الذين يعيشون كالعُميان، أعينهم مفتوحة إلى آخرها. ولكن لا يرون غير ما يؤمنون به.

\* \* \*

أحضروا إلى السجن حارساً ظاهر الشبه بوالدي سنة موته. فهو أصلع وملتح مثله تماماً، وعيناها غارقتان في محجريهما كعينييه، وله الضحكة الخفيفة الخجلة نفسها التي كانت لوالدي قبل موته.

وقد سألني قائلاً:

- ماذا تفعل، يا بطرس، لو تسلمتك الشياطين بعد موتك؟

كان تعلق هذا الرجل بالحياة مضحكاً، فقد كان يستشير ثلاثة أنواع من الأطباء في وقت واحد: الدكتور تركين المشهور، وبعض النسوة في منزله، والقسيس المَحَلِّي الذي يعالج كل الأمراض بوصفة تدعى «أعشاب كوزميتش». وكان ينصحنى من قلقه عليّ قائلاً:

- دعك من هذه اللعبة، يا بطرس، لست من أفسد حياة الناس، فلماذا يكون إصلاحها واجباً عليك؟ إنك كمن يرعى إوز الناس ويهمل إوزة.

ثمة قدر حسن من الحقيقة في الأفكار «الجافية الفظة» أجل، ليس غير المصالح الاقتصادية رابطة بين الناس. إن المادية الاقتصادية نظرية واضحة لا دخل فيها للخيال. فالروابط بين الناس سطحية، وآلية، ومفروضة عليهم. أتمسك بها طالما أستفيد منها. فإن زال نفعها، وداعاً لها! لست جشعاً، يا أولاد، ولا يحتاج نصيبي في الحياة إلى كثير.

وكان بين الزملاء عدد من الشعراء مختلفي الأنواع، مخلوقات غنائية العقول، تبشر بحب الإنسانية، وقد كنت بهم معجباً، ولكنني سرعان ما تبينت أن حبهم للإنسانية خيال صرف وليس من نوع راق. لا شك أن التبشير بحب الإنسانية أمر ضروري لأولئك المعلقين في الهواء دون مكان محدد لهم في

الحياة. وهذا أثبتته تعاليم المسيح. الحقيقة أنّ القلق على الناس لا يأتي من الحب لهم بل من حاجة المرء إلى أن يحيط نفسه بهم حتى يشيد أفكاره، ويدعم مركزه، وينمي طموحه، بمعونتهم وتأييدهم. لسّ أجهل أن بعض المثقفين ينجذبون إلى الناس فيزيائياً في شبابهم ويحسبون هذا حباً. ولكنه ليس حباً، بل مجرد آليات، أعني انجذاباً إلى «الكتل». فعندما ينضجون يصبحون هم أنفسهم أغبي من الصنّاع، أي مجرد وقادين في قطار الحياة، إنّ القلق على الناس يمحو الحب لهم، كاشفاً عن أبسط الآليات الاجتماعية.

وقد انطلقت الليلة عدة طلاقات في المدينة، وتأوّه امرؤ فجر اليوم في الزنزانة التي فوقى وأعول وأثار ضوضاء. قد يكون سيّدة.

\* \* \*

بعثوا إليّ اليوم الزميل باسوف ليسألني عما إذا كنت أكتب. نعم، إني أكتب.

وقد تملكه الخوف كما حدث عند استجابي لأول مرة، فأخذ يعبر بيديه، ويتهته قائلاً:

- كيف أصدق أنك خائن، وأنت عضو قديم في الحزب، ومدبر ثورة، وواحد من أكثر زملائنا نشاطاً...

إن طريقة كلامه بغیضة، كأنّ الكلمات تلتصق بأسنانه ويصعب على لسانه انتزاعها. هو أيضاً مخلوق ثقيل الظل، لا فائدة فيه، أو «وقاد» آخر باختصار. وقد ألقى به غباؤه في السجن مراراً له وجه فريسة بريئة حكم عليها بأن تساء معاملتها طيلة حياتها. هناك كثيرون مثله بين أعضاء «الأنتلجننتسيا» يحملون علامات العذاب والحزن على وجوههم. وقد كثروا خاصة بعد عام 1905، فكانوا يذرعون الأرض كأن الكون يدين لهم بستة بنسات لن يردّها.

أغلب الظن أنهم يعتقدون أن فكرة الموت ستدفع الخوف إلى قلبي وأن غداً تعساً مثلي سيصب الاعترافات على الورق كميزاب الماء في يوم مطير. يا لهم من مخلوقات شاذة!!

أجل، إني أكتب لا لأطيل أمد بقائي في السجن أياماً قليلة. بل لأرضي رغبة شخص ثالث. لقد قلت: إنّ اثنين يعيشان في داخلي، وإن أحدهما يأبى مع الآخر اتفاقاً.. ولكن هناك ثالثاً أيضاً يلاحظ كلاً منهما، ويراقب صراعهما، تراه يحاول أن يزيد صراعهما حدة، فيضاد أحدهما الآخر؟ أم تراه يحاول فقط أن يفهم لماذا ثارت تلك المعركة وكيف؟

لا يمكنني أن أحدّد موقفه.

إنه هو الذي يحملني على الكتابة. ربما تكون ذاتي الحقيقية التي تريد أن تفهم معنى كل شيء، أو بعض شيء على الأقل. وماذا يكون الأمر لو كان هذا الثالث ألد أعدائي؟ وهذا يوحي بأن هناك رابعاً، في كل رجل شخصيتان: الأولى لا تشعر إلا بنفسها. والثانية منجذبة نحو الآخرين. ولكني

أعتقد أن لا أقل من أربعة أشخاص يعيشون في داخلي، وأنهم جميعاً على خلاف... وكل منهم يفكر تفكيراً مختلفاً عن الآخر.. مهما يكن ما سيصينني، فإن الثاني يجادل والثالث يسأل:

- علام تتشاجرون؟ وما نتيجة شجاركم؟.

أجل، يمكنني أن أقول إنَّ هناك رابعاً أحسن إخفاء نفسه أكثر من الثالث، ويراقب خلصة كوحش مفترس يتحين فرصته. وقد يظل قابلاً طيلة حياتي، يلاحظ كل هذا الصراع من مكمنه.

أعتقد أنَّ الرجل في مرحلة شبابه، وبقما تكون شخصيته الأخلاقية في طور التكوين، يخنق كل أجنة الشخصيات المخبأة فيه عدا واحدة، أحسن واحدة.

ولكن ماذا يكون الأمر إذا خنق الأحسن واحدة؟

إنَّ الأمر ميسور بالنسبة للمتعلمين، فالمدرسة تقوم لهم بهذا العمل فنقتل الحبة الشريرة التي لا فائدة فيها، ولكن نحن، عندما يتملكنا الظمأ الذي لا يُروى إلى معرفة كل شيء، وتجربة كل شيء، والارتقاء في أحضان كل نار - يكون الصراع مؤلماً. كنت أشعر وأنا في العشرين أنني لست رجلاً بل حفنة من كلاب الصيد، تندفع في كل اتجاه، صائدة كل غزال، مشبعة كل رغبة.. ولم يكن للرجبات آخر.

العقل لم يهدني، ولم يبين لي أنَّ هذا خير، وذاك شرّ. ويبدو أنه لا يعتبر من اختصاصه.. إنَّ عقلي طلعة كطفل لا يبالي خيراً أو شراً. ولست أدري ما إذا كانت هذه اللامبالاة محتقرة أم لا. هذا بالضبط ما لا أعرفه.. ومن المناسب أن أنقل هنا ملحوظة تاسيا المضحكة:

«ثمة انحراف في طبيعة كل رجل ماهر».

ها أنا ذا أكتب لإرضاء رغبة الشخص الثالث. أكتب لنفسي لا لأجلهم أو لأنني ضجر. فثمة سحر عظيم أن يروي الرجل لنفسه قصة حياته. فينظر المرء نفسه كما ينظر إلى غريب، بل من المسلي أن يصطاد المرء أفكاره وهي تحاول الاختباء والكذب على الرابع، والهرب من حراسته الساهرة. إنَّ هذه اللعبة لا تساوي الشمعة وحدها، بل تستحق شعلة بأكملها.. حسناً.. ليس من المفيد أن يروا هذه المذكرات ويقرؤوها، ولذا سأحاول إتلافها في الوقت المناسب أو إمرارها إلى أيدي أخرى.

هناك ثلاثة لصوص في الزنزانة المجاورة، ثلاثة شبان مرحون أكبرهم ليس إلا فتى في العشرين، والثاني طالب في مدرسة البحرية يجيد غناء مقطوعات كهذه:

ولدت بانساً

وسأموت بانساً

فلو قطعوا رأسي

إنه فتى شجاع، كنت مثله وأنا في سنه. فقد أحببت الخطر كما تحب زميلتي تاسيا الشوكولاته. كنت رجلاً يجد لذته كلها وقتما تحف به الأخطار. فذات مرة فصلت رياح العاصفة كتلة جمد عن أخواتها وطوحت بها وبالصيادين بعيداً في عرض البحر.. فاندفعت لإنقاذهم، ولكنني فصلت أيضاً فطفت وحيداً على كتلة جمد صغيرة والحبل بيدي، والأمواج العاتية تلطم الثلج فتذيبه تحت قدمي، فلو مضت لحظة أخرى غرقت، واتضح لي هذا حتى أنني أحسست بقلبي يتلج بين أضلعي. وألقى إليّ الصيادون الواقفون على الثلج الصلب حبلاً، وفجأة كأن إنساناً حاذقاً شريراً تقمص جلدي، صرخت طالباً حبلاً أخرى، وألقيت بالذي في يدي إلى الصيادين الذين كانوا يصرخون مرعوبين على بعد ثلاثين قدماً. فأمسكوا بالحبل وسحبوني إلى اليم. ولكنني استطعت أن أمسك بالحبل الآتي من كتلة الثلج الجامدة، وربطهما ببعضهما، وألقوا إليّ حبلاً آخر، فسحب الرجال جميعاً إلى الشاطئ. ولم يغرق من التسعة إلا عجوز سقط في الماء أثناء الضجة. وكان الحبل يحز في جسدي وطافية الجليد تسحب إلى الشاطئ.. كان الخطر إذا تحداني يضاعف قوتي دائماً، ويملؤني إقداماً وثقاً، ويحفز قدراتي ويثيرها كأنه يتحدى نفسه متيحاً لي التغلب عليه.. كنت متهوراً جسوراً لا أرضى عن نفسي إلا عندما تكون حياتي معلقة على خيط عنكبوت.

وثمة حادثة أخرى مضحكة: حدث أثناء هروب من أحد السجون دبرته لعدد من الزملاء أن أطلق الحارس العجوز غدارته أربع مرات محاولاً إيقافنا. وقد توقفت بعد الطلقة الثانية، فقد بدا الجري مهيناً لا فائدة فيه. فلما رأى مني ذلك أطلق النار ثالثة، فأصابت الرصاصة حدائي وخدشت ساقي.. فحاول إطلاق النار على صدري مباشرة. ولكن الرصاصة لم تنطلق، فأطحت الغدارة من يده قائلاً:

- إيه، حظ سيئ أيها العجوز.

فقال بصوت محشرج لاهتأ:

- ماذا تنتظر أيها الشيطان! لماذا لا تجري يا رجل؟

أعتقد أنني لم أخف في حياتي إلا مرة واحدة. وهذه كانت في حلم حلمته، وأنا منفي في إحدى جزر سيبيريا الصغيرة. وكان الأمر مصادفة، كنت قد قرأت كتباً عديدة في علم الفلك، وبرئت وشيكاً من حمى التيفوئيد، عندما ظهر رجل بادي الهزال يبشر عن «المصلوب لأجلنا». لم يكن يقول المسيح أبداً، بل «المصلوب» كان مخلوقاً عاطفياً كأنه مخبول ويبدو عليه أنه من المتقنين، وليس درويشاً يعيش على فضلات المطابخ. وكان نحيلاً خفيف اللحية، أشيب الفودين، رغم أنه لم يجاوز الثلاثين، وليس نضراً فيه إلا عيناه، فقد كانتا تتألقان كعيني صبية تحب، ويكاد سوادهما يغطي بياضهما. كنت جالساً على مقعد كبير خارج البوابة، أتشمس وأعطس عندما ظهر هذا الرجل بجواري، يتحدث عن «المصلوب» بهدوء، وصراحة طفولية كأنه عاش مغامرات المسيح كلها..

وشرعت أجادله، فطلب شيئاً يأكله. فأخذته إلى حجرتي، حيث حمى جدالنا. والواقع أنه لم يناقشني بل كان يقرأ آيات من الإنجيل ويبتسم بحنو. ومكثت حتى ساعة متأخرة من الليل أحاول إقناعه...

ولم أخبره هذه الكلمات الأخيرة، فهذه أول مرة ألفظها، وهي أيضاً ساذجة وسمجة، لا، لا يمكنني أن أكتب.

فقد جلست إزاءه صامتاً أفحص أفكارني عن الله، والدين وكل عاطفة الفقر الروحي هذه. وجلس هو على مقعد بجوار النافذة يرقبني، وهو منحني على المائدة، ويضحك بين الحين والحين ضحكة البريء السمحة. جلسنا على هذه الحال حتى غلبنا النوم آخر الأمر، أنا على السرير وهو على الأرض.

وقد استيقظت بعد منتصف الليل فوجدته واقفاً يتوسط الحجرة طويلاً يكاد يلمس السقف، ويتمتم وهو يواجه النافذة ويشير إليّ قائلاً:

- ساعده، يجب أن تساعده.

نطق هذه الكلمات مشدداً كأنه يصدر أمراً لشخص يشعر بسلطانه عليه. وقد ضايقتني هذه الصلاة القصيرة، ولكنني لم أقل شيئاً لذلك المخلوق الشاذ. وعدت أستأنف نومي. فحلمت أنني أسير عبر الأفق على حافة دائرة مسطحة، تغطيها قبة سماء قاتمة، شاعراً بشيء بارد صلب تحت أصابعي، وكان ذلك الشيء، حافة السماء المعتمة. رأيت جسدي مشوهاً أشنع تشويهه، ووجهي عابساً، ويدي ترتجفان يابستي الأصابع.

وكنت قد أنمت عدة دورات حول الدائرة الفارغة، وسرعتي تتزايد باستمرار، دون أن أدري ما أبحث عنه، وأعجزني الوقوف وتملكني شعور بالتعب واليأس. وكانت الأرض خالية ممن عليها، وفي السكون السادر، والموت تزايدت سرعتي حول الدائرة حتى أصبحت أشبه بطيران السنونو، وتبعني انعكاس صورتي، فأينما توجهت كان هناك... وتقلصت الدائرة، وتضاءلت، وسقطت قبة السماء، فجريت، واحتبست أنفاسي، وصرخت... وأيقظني الرجل، وفي غمرة رعبني سررتي صحوي حتى أنني أمسكته من كلتا يديه ونهضت ضاحكاً. كان تصرفي غيبياً حقاً، ولكنني لا أذكر شيئاً أفرزني كهذا الحلم. وعلى فكرة، خطأ هو القول أن الغامض وحده مخيف. فالفلك مثلاً، بسيط جداً، ولكنه ليس أقل من الغامض تخويفاً للضوضاء وأعيرة النار تتردد في المدينة. وقد نفدت سجائري، إني ضجر.

لقد عملت بحماس، وكانت حياتي ثورة. وأحببت التسلط أكثر مما يحب أغلب الناس، والمتقفين منهم خاصة، المغرمين بالإمارة ولا يعرفون كيف يأمر. لا يهمني ما يقال، فالتسلط على الناس يُرضي المرء إرضاءً عظيماً. فإجبارك إنساناً على التفكير والسلوك حسب مشيئتك لا يعني الاختباء خلفه، لا، فلهذا العمل قيمة في ذاته، فهو تعبير عن سيادتك الشخصية، ودليل أهميتك، ومثير للإعجاب... ولو لم أحب القوة لما كنت ثورياً مرموقاً.

وعندما قبض عليّ لأول مرة، شعرت شعور بطل وذهبت لأواجه التحقيق كما يذهب المرء ليقاقل دياً بمفرده. لست بارعاً في تحمل العذاب، ولم أعانه كثيراً في السجون.

ولقد أتاح لي السجن أن أقرأ وأتعلّم. والسجن يخلع على الثوري رتبة القائد، ويحيطه بهالة من البطولة والقداسة، على المرء أن يستفيد منهما عندما يحاول دفع الناس في طريق الحرية رغم إرادتهم.

ولكن خادم أعدائي، أعني مدير الشرطة انقلب رجلاً مؤدباً أفتى الأنف، بديناً، تبدو عليه آثار السكر، ورحب بي وهو يبتسم وينطق كلمات لم أكن أتوقعها أبداً من عدو:

- أنت بطرس كرزين، الشهير بالياس كرمورا؟ أوه، إنك شخص لطيف، سوف تصبح فارساً رائعاً. كنت قد أعددت نفسي لأحداثه بجفاء وازدراء، ولكني سرعان ما تبينت أن الأمر سيكون سخيلاً مضحكاً. لا لآته الآن جانبي، بل لأنني أدركت فجأة أنني أواجه عصفوراً لا يطلق النار عليه إلا معنوه أو جبان. وعندما أعلمته أنني لن أدلي بأية معلومات، جعد أنفه بإبهامه وقبع في كرسيه قائلاً:

- طبعاً، طبعاً. ذلك ما تفعلونه جميعاً، في هذه الأيام. حسناً، هذا معناه البقاء قليلاً في السجن... إيه.. إنكم أطفال.

ولاح لي أن الكولونيل سرّ من قراري الحازم. ولم يخطر ببالي أنه ربما يريد الإسراع إلى غدائه، وأن هذا سبب إنهاء الأمر بيننا بهذه السرعة والبساطة.

ربما كان خيراً لي لو أنني واجهت رجلاً من نوع آخر، أعني وحشاً في حالة رسمية، عدواً لا موظفاً.

كم في الحياة من غرائب! وأغربها أن يكون عدو الإنسان خير معلميه.

وعلى أي حال، لم يحدث أن صادفني رجل استطاع أن يثير فيّ شعور العداوة والكراهية، رغم أنني دخلت السجن ثلاث مرات واستجوبت عشر مرات. كانوا كلهم مجرد موظفين عاديين، بل كان بعضهم يخلص للمعتقلين. لا أقول هذا لأخرج أصدقائي القدماء، بل لأقرر بالمصادفة حقيقة واقعة. قال الكولونيل أوسيبوف وهو يعلنني بالحكم: إنك محظوظ، فالحكم عليك خفيف، مع أنك تستحق عقاباً أشد، فأنت رجل خطر.

ووقعت هذه الكلمات مني موقع المديح، رغم أنه قالها أسفاً دهشاً.

كان رجلاً على قدر من الذكاء، حسن الفهم للطبيعة الإنسانية وذات يوم بعد أن فرغ من سؤاله الأخير أفلتت منه عبارة ضايقتني فقد قال وهو يراقبني من خلال عويناته:

- أعتقد يا كرزين إما أنك تتظاهر بالغباء أو أنك أخطأت وتقوم بعمل لا يلائمك.

وقد أثارتنّي عبارته هذه كثيراً. ففقدت زمام نفسي وأصبحت وقحاً، ولكنه أسكتني قائلاً:

- ما أردت الإساءة إليك، وإنما صرّحت لك برأيي فقط كرجل لرجل. فأنت تلعب لعبة خطيرة، ويخيّل لي أنك لست عنيفاً إلى حدّ تصبح معه ثورياً...

أعتقد أنّ أوسيبوف كان رجلاً شريفاً، وأثبت من تحت إمرته ذلك.

حدث ذات يوم أن ألقى القبض على ابن صاحبة المنزل الذي أسكنه، وكان طالباً وتلميذاً من تلامذتي، فأقسمت لأوسيبوف أنّ لا صلة له إطلاقاً بنواحي نشاطي، والتمست إطلاق سراحه حتّى لا يُطرد من مدرسته. فقال أوسيبوف:

- بكل سرور.

وأصدر أوامره بإطلاق سراح الصبي، وفيما أنا أشكره، قال:

- إنّ من مصلحتنا، يا صديقي الطيب، أن نقلّل عدد الثوار أمثالك لا أن نزيدهم، بينما من مصلحتك أن تدع الصبي في السجن، لتزيد نغمته علينا...

ربما يكون هو أيضاً ثنائي الشخصية. إنّنا إذا نظرنا إلى الناس من الخارج وجدناهم ينقسمون إلى الذين يعملون والذين يعيشون على عمل الغير، أي العمال والملاك، أمّا من الداخل فإنهم جميعاً ينقسمون إلى ذوي الشخصيات «الكلية»، وذوي الشخصيات «المنقسمة». الأولون يذكرون المرء بالثيران - ولا يستطيع المرء إلا أن يسأمهم. أعتقد أنّ كون الشخصية من قطعة واحدة هو نتيجة تحديد الذات Limitation - self لأجل الدفاع عن الذات وحمائتها defense - self ويلوح أنّ داروين من هذا الرأي أيضاً. فقد يستقر المرء في موقف تكون بعض خصائص ذاته خطرة عليه لا تافهة فقط - قد يستفيد منها أعداؤه الداخليون أو الخارجيون. فيخمد الإنسان شعورياً ما لا لزوم له ويدمره، وبذلك يحصل على الكلية wholeness فالثوري مثلاً لا يحتاج إلى الرحمة، والأشعار الغنائية، والعاطفية والرومانسية، وإنما كل ما يحتاجه هو الحماس والإيمان بنفسه. فأدنى اهتمام في متنوعات الحياة خطر عليه. من السهل أن يتيه فيها كالطفل في غابة من العوسج.

وتشبه حياة ذي الشخصية المنقسمة طيران السنونو. لا شك أنّ رجل القطعة الواحدة أكثر نفعاً من الوجهة العملية - ولكنني مع النمط الثاني أكثر تعاطفاً، فالرجل المعقد أكثر إثارة للاهتمام. كما أنّ الحياة مزينة بما هو عديم النفع. فلم أقابل بعد المعتوهين الذين يزينون منازلهم بالمطارق والمفكات والدراجات. ولكنني عرفت تاجر قمح غني جمع أكثر من خمسمائة قفل وعلقها في حجرتين كبيرتين على دروع من قماش أحمر. ولكن أقفاله كانت من الروعة لدرجة أنّي كحداد بالوراثة سررت وأنا أتفحصها. وكانت كلها عديمة النفع طبعاً...

إنني مغرم بالخدع التكتيكية، مهما يكن شكلها، قدر شغفي بكل لعبة من الألعاب الذهنية البشري.

\* \* \*

يتحدث الناس كثيراً عن «المدنية المسيحية» لِمَ الكذب؟ أي شيطان هو المسيحي؟ أين البساطة في مدينتنا هذه؟ إن البساطة التي يتحدث عنها الإنجيل لا وجود لها في أي مكان... لقد تعهد الناس المكر، والأفكار الشريرة ونثروها على العالم كأنهم حفنة من الكلاب المجنونة. يا لهم من أغنياء.

\* \* \*

لم يقبل عام 1908 حتى كان أقوى الرجال قد قتلوا.. أو نفوا إلى سيبيريا.. وتزين آخرون بطوق اللامبالاة وقد عمّ الخوف قلوبهم، وبمرور الوقت حجبت هذه الأطواق، أجسادهم واستحال آخرون إلى لصوص لرغبتهم في الحياة المريحة. فحياة الراحة مرتبطة مباشرة أو غير مباشرة باللصوصية. وأظهر زملاؤنا المتعلمون مكرًا وسرعة في تحاشي عقاب المنتصرين. كان الوقت عصياً حقاً. فحتى الذين أثبتوا أنهم من الأبطال تحولوا إلى الضعة.

ولكن يحسن عدم الكتابة عن هذه الأوقات أو التفكير فيها فلست أرغب في أن ألمح إلى أن كل الأوقات كانت كذلك.

لا، لا أريد البحث عن أعذار. فلقد اختطت طريقي وغايتي. اعتاد أحد أصدقائي التترين أن يقول:

Mia oin Min (أنا هو أنا) مهما أكون فأنا هو أنا.

لقد لعبت الظروف دوراً كبيراً في حياتي. فقد اعتدت العيش مسلحاً، وعلى أهبة القتال، وهذا استنفذ طاقتي حتى أنه لم يكن لدي وقت أفكر فيه: من أنا؟. اعتدت الارتباط بالآخرين عن طريق الشعور بالأغراض المتبادلة، السياسية والاقتصادية، والتضامن الحزبي والنظام، ولكنني شعرت فجأة أن هذه المسائل لم تعد تستغرقني تماماً، وأن تضامن الأغراض أمر مشكوك فيه، وأن لوائح التنظيمات الحزبية مختلفة متنافرة. كما اصطدمت بهذا السؤال: لم يتغير الناس ويتقبلون بهذه السرعة؟ لماذا يخونون مبادئهم وعقائدهم بهذه السهولة؟ قد يبدو من كلامي هذا أنني أتلثم الأعذار. ولست أرغب في ذلك أو أؤيده. أعتقد أنني أقارب الصدق لو قلت ببساطة: إنني اعتدت العمل بحب وحمية، ونكران ذات، ولكنني فجأة أخذت أتلثمكأ ويدي في جيبي، مصفراً، عزوفاً عن القيام بأي عمل. لم يكن ذلك لأنني تعبت وعجزت. لا، كل ما هنالك أنه لم تعد لي رغبة في العمل. لقد مللت.. ولم أمل لأنه أصبح عليّ ثانياً أن أجذب الناس من زمام رقابهم وأدفعهم نحو الحرية على طريق يتلأأ بالدم - لا، ليس هذا هو السبب. فلقد باشرت كل هذه الأعمال من جذب، ودفع، وقيادة.

كانت الأفكار لا تزال موجودة، ولكن الطاقة الدافعة بدت كأنها تبحث عن منافذ أخرى، من العسير شرح هذه الحالة من العصيان الهادئ العنيد الذي يعوق الفكر والمشاعر ويثير رغبة عنيدة في خبرة جديدة.

ربما كانت ثورة المغامر، ثورة الرجل المعتاد المؤامرات، والخطر، والمجهول، ربما.

ولكن الحقيقة لو عرفنا الأمر ببساطة، هي أنني اعتدت التحدث إلى الناس بكلمات مستعارة من الكتب، أصمتني ضوضاؤها من الإصغاء إلى الصوت الذي في داخلي. وفجأة تبينت أن بداخلي ضيف كريبه بغيض يتتبع كلماتي بدقة ويراقبني بشك وارتياب.

وبدأت ألاحظ ما فاتني من قبل، وهو أن الدكتورة ساشا المتخصصة في أمراض الأطفال، امرأة على جانب من الجمال.. كانت صغيرة السن. ريانة الجسم، مرحة، تتبطني وجهها النضير المستدير ما يقرب من عام. أما ساقاها فكانتا تتلألآن في جواربها الزرقاء. كانت مغرمة باللون الأزرق، فصديرياتها شرائط شعرها وأغطية مصابيحها، والصناديق الصغيرة في حجرتها، والصورة المعلقة على الحائط - كانت كلها زرقاء. حتى شبكتي عينيها زرقاوين، ولكن أنسانيهما حالك السواد، يذوب في بسمه رقيقة.

لم تكن حسنة الفهم للسياسة، فالقصص معظم ما تقرأ، فلم تكن تحب الكتب الجدية، رغم ذكائها الوطني الموروث.

في عام 1906 بعد أن أخدمت الثورة، والبوليس يدمر منظماتنا، ويرسل الناس إلى السجون بالعشرات، أدهشتني ساشا بموقفها الهادئ إزاء الحوادث. فدبرت لي مخاباً في بيت عمي الضابط، وفيما هي تتركني وتهز يدي مودعة قالت:

- لماذا تهمل أظفرك هكذا؟ كما أن بأذنك بقايا رغوة صابون جافة.

أحببت كلماتها، وأحببتها حباً كتمته عنها، ولكنها سرعان ما تبينته وأقدمت على مساعدتي ببساطة، بل بشيء من الجراءة. فذات مساء كنا نتناول الشاي سوياً فسألنتي فجأة كأنها غاضبة:

- حسناً، متى ستحزم أمرك وتخبرني أنك مغربية؟

هكذا بدأ حبنا. وكنت قد توقعنت أمراً مخالفاً. وبدالي أن الحب الحق كالإيمان يجب أن يكون ساذجاً.

ولكني لم أجد سذاجة في بساطة ساشا. أذكر أنها لم تكن تحجب نفسها عني وهي تنضو ملابسها، وتقول مزهوية وهي تقف أمامي عارية:

- ألسنت جميلة؟

وهكذا بدأنا قصة بلذة زائدة، ولكن بلا سرور. قصة «حب عملية». كما يقال، ولا المرء يمكنه لا الحياة بدونها.

وظهر في المدينة وجه جديد هو الزميل بوبوف الذي أخذ يحوم حول ساشا. كان نظيفاً قوياً، وردّي الخدين أفتس الأنف أحمر الشعر، يتطلع إلى الناس بعيني كلب مخلص. تعبران عن استعداده لخدمتهم، عن استعداده لأن يعدو ويقبض على الفريسة. وكان هذا الفضول مثير شجاعته، ولكني تبينت أنه جبان. وكان موهوباً في رواية النكات اليهودية، وتمكنه من تلاوة الأشعار الفكاهية. ويبدو

أشبهه بمغنٍ في ملهى أو مهرج منه بثوري حقيقي. كان فيه شيء محبب، وشرارات لامعة في حديثه، وإبر حادة في أفكاره. وسرعان ما لاحظت أن بوبوف كثيراً ما يحبو ساشا بالحلوى، وبيبتاع لها كتباً، وباختصار ينفق قدراً من نقوده تودداً إليها. فسألته رأيتها فأخبرتني أن له أختاً غنياً في روستوف، فلم تهدأ مخاوفي. ربما كنت غيوراً بعض الشيء لعرفاني أن فضول زوجتي الجنسي إزاء الرجال شديد، أمّا عن نفسي فأنا سريع الارتياح تتقضي الثقة بالناس، فقد عشت في عهد «المخبرين السياسيين». وبدأت أتبيّن أن معلومات البوليس عنا قد زادت منذ ظهور بوبوف في المدينة. وقد اكتشف خيانتة بطريقة بسيطة. بدأت بإقناع أحد أعضاء الأنتلجنتسيا المعضدين لنا بأن يتحمل مشقة تفتيش البوليس لمنزله، وأخبرنا بوبوف بحذر أننا أخفينا أشياء تهم البوليس كثيراً، في ديوان مكتب هذا الرجل. فقدم البوليس بعد ساعة تقريباً إلى منزل الرجل، وأجرى تفتيشه بسرعة، فمَرَق الديوان وأخرج محتوياته كيفما اتفق فلم يجد شيئاً بالطبع.

كنت أعيش في المدينة وحيداً تقريباً، بعيداً عن زملائي العمال بما يقرب من عشرين كيلومتراً.. فقررت أن أنهى الأمر بمفردي..

وكان بوبوف يعيش في الضواحي، في الطابق العلوي من منزل يملكه بستاني. وسرعان ما بدا عليه الهم، فمن يراه يتبين أن بنفسه اضطراباً، فقد عرف نتيجة التفتيش، ولعله تبين أن أمره انكشف. وعندما رأني أمامه غلبه الخوف وأعلن أنه دُعي إلى حفلة عند مالك المنزل، ولم يكن كاذباً فصوت الأوكرديون كان يتصاعد من أسفل عنيفاً صاخباً.

وفي طابق بوبوف العلوي ذاك قضيت أسوأ ثلاث أو أربع ساعات في حياتي: سألته: منذ متى وأنت تعمل لحساب البوليس؟

فترنح بوبوف وسقطت بعض سجائره، فانحنى يلتقطها من تحت المنضدة، حيث قال متلعثماً في صوت غريب:

- نكتة با - ئ - خ - ة ..

ولكنه انحدر من كرسيه إلى الأرض وهو يتطلع إليّ بعينيه وركع على ركلة واحدة وضحك بعصبية، وهو يتأوه كالمراة، وتمتم مراقباً الغدرة في يدي:

- دعك من هذا.. لا تتماذى فيه..

وانتفش شاربه، وتلوى وجهه، وطرفت عيناه، وظلت إحداهما نصف مغمضة، والأخرى لا حراك بها كعين الأعمى. فجذبته من شعره وأجلسته، وأمرته أن يخبرني قصته، ورأيت رجلاً أمامي بلا وجه: فقد استحال وجهه إلى قطعة من الجلاتين ترتعش فيها عيناان تحملقان مرعوبتين. وتدلّت شفته السفلى كقطعة من اللحم ميتة، وتلوت ذقنه، وغمرت التجاعيد خديه - ولاح كأن رأسه يتحلل ويتفكك ويوشك أن يصب الصدر في سيل من الوجل القاتم. وضغط بوبوف خديه بيديه، وصمّ أذنيه، كأنه يزيد هذا التأثير حدة.

وأخبرني قصة لا جدّة فيها. قال: إنّه التحق بالحزب سنة 1903 ودخل السجن مرتين، وشارك في ثورة مسلحة في عام 1908، فقبض عليه في الشارع. وتتحنن وهو ماضٍ في قصته:

- لقد شاركت مشاركة فعلية، بل أطلقت النار، وقتلت بعض الناس، أقسم لك، فأنا واثق من قولي.

لقد هددوني بالإعدام شفقاً. فقل لي بربك: ألا يريد الإنسان الحياة ويتعلق بها؟

فكر في هذا فقط: أليست الحياة موجودة لأجلي، ولست أنا موجوداً لأجل الحياة؟

كان يهمس بكلماته موقناً ويسألني:

- أجل، أجل، أليس الأمر كذلك؟

واستمرّ يخمش ركبته بيد، وبالأخرى يدعك قصاصة ورق. فخطفتها منه وقرأت اسمي واسم ساشا عليها والعبارة الآتية: «قد يكون من السابق لأوانه القبض على كرزين، والأفضل أن يُلقى القبض عليه في إكاترينو سلاف حيث سيذهب وشيكاً».

لم تثرني قصة بوبوف، وإنما فلسفته هي التي أثارتني. وكأن الشيطان نفسه لقّنه كلمات سخيّة قست قلبي عليه في الحال. فسألته: - ألم يؤنبك ضميرك أبداً؟

- أوه، أجل، لقد أنبني. وإنّ تأنيبه لمضن أول الأمر. فيشعر المرء أنّ الجميع يعرفون حقيقته. ثمّ يعتاده المرء تدريجياً. لعلك تظن أنّ عمل البوليس سهل؟ إنه ليس كذلك، فهناك أيضاً يجب أن يكون المرء بطلاً. إنهم لهم أبطال مثلنا، أوه، أجل، في أي صراع يكون لكل فريق أبطاله!.

وأردف مخفضاً صوته، متبسماً ابتساماً حقيرة ماكرة:

- إنّ العمل هناك مثير حقاً، بل لعله أكثر إثارة من عملنا فنحن كثرة وهم قلّة..

وتبينت أنّ خوفه يتلاشى ويتبدد. وأنّه يحند وهو ماضٍ في الروي بحيوية وبعض النكات، وكان منها ما يثير الضحك فكثيراً ما كتمت رغبة في الابتسام. وخطر لي أنّ هذا العجل الذي استحال كلباً بوليسياً يمكنه كتابة قصص ممتعة. كان في استهتاره cynicism صراحة قست قلبي وأخافتني أيضاً، وشعرت شعوراً عجبياً بالعربة عن نفسي. وأخيراً أذفت اللحظة التي جمعت فيها نفسي في قرار مفاجئ وقلت:

- حسناً، يا بوبوف، اكتب ورقة تقول فيها أن لا أحد مسؤول عن موتك.

فغلبت الدهشة خوفه، وسألني عابساً:

- ماذا تعني؟ لماذا؟ أي موت؟.

فأوضحت له: إن لم يكتب ذلك أطلقت عليه النار، وإن كتب يجب أن يشنق نفسه في الحال.

وكان أول ما أجاب به غريباً سخيلاً:

- أنتني انتحاراً؟ لن يصدق أحد أنني انتحرت، لا أحد. وستكون أنت طبعاً أنت. وإلا فمن غيرك؟

إنهم يعرفون أنك وحدك هنا.. وهل من حقا أن تدينني وتعاقبني، بمفردك كما أنت؟

وانحدر إلى الأرض، وأمسك بقدمي، وصاح وتأوه، فكان علي أن أسدّ فمه البغيض المروع.

صاح هامساً مستعظفاً:

- لا، يجب أن تحاكمني، حاكمي كما يجب أن أحاكم.

وقد استمرت هذه الضوضاء طويلاً، وكنت أتوقع في كل لحظة أن يسمع سكان الطابق الأسفل الضوضاء ويصعدوا ليروا الأمر. ولكن صوت الأوكرديون علا واشتدّ، كما ازداد الصراخ والضجيج عنفاً. وشنق بوبوف نفسه على الموقد - وأمسكت يديه وهو يطلق ساقيه، وبصوت عال تقياً الهواء من جوفه، سأتوقف عن الكتابة، أي شيء على الأرض جعلت له الكتابة؟ أي شيء على الأرض؟

لا، إن الكتابة عمل مسكر رائع. فعندما يكتب المرء يشعر أنه ليس وحيداً في هذا العالم، وأن ثمة إنساناً آخر يهتم به. إنساناً لم يقترف المرء في حقه إثماً، إنساناً يعطف على أخيه الإنسان ويهبه الرحمة والغفران دون تحقير أو ازدراء. إن المرء ليشعر حين يكتب أنه قد صار أوفر نشاطاً وأشدّ طهراً وجمالاً. إن الكتابة عمل مسكر يثير النشوة في الكاتب. إنها تمكن المرء من فهم دوستويفسكي. فقد كان كاتباً لا يعنيه إلا أن يسكر نفسه بألعاب خياله العاصفة المجنونة العابثة. ألعاب تدور رحاها في نفسه. لقد اعتدت أن أقرأه بعين الريبة. فقد كان يبدو لي أنه يهول على الناس ويخيفهم بنشر الأعماق السحيقة المظلمة لروح الإنسان، حتى يقرّوا مستسلمين لنصائحه العديدة وإرادته الغامضة القائلة: «اذعن واستسلم أيها الإنسان المغرور!» فلو فرضنا أن هذا الامتثال كان ضرورياً لدوستويفسكي إلا أنه كان شيئاً من أشياء كثيرة لا كل شيء. لقد كان مشغولاً بنفسه أولاً وأخيراً: «أنا هو أنا Min din Min. لقد عرف كيف يبث نفسه للآخرين ويعتصر من نفسه العصير الملتهب اللافح حتى آخر قطرة. أعرف قبله كاتب لفظ أنفاسه الأخيرة على صفحة لم تتم كتابتها بعد! ما عرفت ذلك قبله. لقد تلاشى بعد أن كتب، واستنفد من نفسه كل قطرة وآخر شرارة.. أسفي على أنني لم أحاول ذلك العمل المسكر من قبل.

حسناً، سأستمر أكتب عما يحيرني من أمور..

خرجت من المدينة والليل صاف بارد.. والطريق يمتد عليه صف من أشجار سوداء.. وفي ظل شجرة سوداء جلست حتى مطلع الفجر.. عندما يتبين المرء صوت عربات الفلاحين. وشعرت أنني

مريض وأن بقلبي فراغ رطب.. وأنّ جسمي تغمره بلادة هائلة لا أدرك لها سبباً.. كنت أنتظر أن يلتهب شيء ويشع في داخلي. ولكن غضبي كان قد مات لحظة أن مات بوبوف. وهمس في داخلي صوت يقول: لقد قتلت رجلاً. ولكني سرعان ما تبينت مدى فراغ هذه العبارة.. فلم أنزعج.. كان الرجل خائناً. فلم يخامرني شعور بالجرم..

ولكن من هناك، من بعض الأعماق.. برز أمامي سؤال مزعج: لماذا أجبرت بوبوف على أن يشنق نفسه على غير انتظار مني، وبمثل هذه السرعة، كأنّ شيئاً فيه لا فيّ أخافني؟ أكنت أمحو مجرماً، أم شاهداً خطراً عليّ؟ أأكون قد قتلته لسبب آخر غير خيانتة؟؟ واستمرت كلماته تدور في ذهني:

«في أي صراع يكون لكل فريق أبطاله». ولم ترعيني أفكاره الهزيلة المستهترة، وبدت لي جد أليفة، كأنني سمعتها وعرفتها منذ أمد بعيد..

وضايقتني عدد من الأسئلة كما يضايق الذباب إنساناً: كيف سلك بوبوف مع البوليس؟ هل سلاهم بنوادره المضحكة؟ أكان يضحك وإياهم عليّ؟ ولكن العجلة والسرعة المفاجئة التي أجبرت بها بوبوف على قتل نفسه هي ما أمضتني أكثر غيرها.

في هذه الحال من الحيرة مع نفسي، في نصف حلم، قبض عليّ في اليوم التالي. وأخبرني رئيس إدارة البوليس سيمونوف بصوت جاف منفعّل:

- اسمع يا كرزين، بالرغم من أن بوبنكو يعترف بأنّ لا أحد مسؤول عن موته، إلا أنّ مقتله يثير الريبة كما أنّ معصمي يديه تحملان علامات غريبة تدل على أنّه شنق ولم يشنق نفسه، وقد ثبت أنّك ليلة مقتله مكثت معه إلى ما بعد منتصف الليل. وهذا يلنقي ولحظ موت بوبنكو. كما أنّ فحص البصمات سيثبت أنّ بصمات الأصابع على المنضدة الزجاجية هي بصماتك. لست أجهل ما عرفته عن بوبنكو، فإنّه حدس أنك اكتشفت أمره. لقد كان رجلاً نافعاً لنا، وستدفع ثمن موته بنفس الطريقة. كما أنّ هناك أسساً لاتهامك بقتله في نوبة غيرة، وستدخل أكسندرا فارفارينا في الموضوع - أفهمت؟

فأصغيت إليه صامتاً، غير خائف. ولكن التهديد بمحاكمتي في قضية غير سياسية كان بغيضاً وتحشّر سائساً في جريمة هوى؟ لا. فقد بدا ذلك في نظري سخيلاً بدرجة تدعو إلى الضحك.

واستطرد سيمونوف قائلاً بطريقة عملية، وهو واقف بين سحب الدخان:

- أقترح أن تحل محل بوبنكو عندنا. فإن وافقت، عليك أن ترشدنا حالاً إلى عدد من الرجال يفيدنا التخلص منهم. ويبدو الأمر وكأنّ بوبنكو خان أصدقاءه وانتحر تخلصاً من عذاب ضميره، ولن أذكرك بأنك قد تبدأ حياة حسنة، وسأتركك الآن ساعة أو ساعتين لتفكر في الأمر. وأنصحك ألا تتلأأ طويلاً. وأردف وهو يتركني ويقفل باب الزنزانة الصغيرة وراءه.

- وليس أمامك طريق آخر.

أذكر أنه لم يخفني حبل المشنقة مسلطاً حول عنقي، رغم تبيني أنّ الأمر قد أفلت مني بلا رجعة. وأعتقد أنني لم أضع دقيقة واحدة متردداً. فقد عقدت رأيي لحظة قال سيمونوف «لتحل محل بوبنكو».

وأذكر أنني كنت مندهشاً للسهولة والسرعة اللتين عزمت بهما رأيي. فقد حدث ذلك طبيعياً وببساطة كأني أرغب في النوم، أو التنزه، أو تناول قذح من الشاي. وجلست في الحجرة الضيقة المظلمة أصغي إلى نقرات المطر على زجاج النافذة. وأنتظر أن يرتفع من داخلي صوت يحتج على ما فعلت. ولكن لم يرتفع أي صوت. فما معنى هذا؟ ومن أين يأتي هذا الهدوء؟ وما معناه؟ لماذا لا أشعر نحو نفسي بعين الاشمزاز الذي شعرته نحو بوبنكو؟ واستعدت ذهنياً كل ما يوصف به الخونة من كلمات، وما قيل عنهم في المنشورات. فلم يثرني أو يعذبني شيء. ولاح كأنّ الذي أجبر بالأمس مخلوقاً على الانتحار وصمّ اليوم أن يدمر حياة كثيرين، قد اختبأ في مكان ما، بينما الآخر يبحث عبثاً عن المجرم متحيراً منتظراً أن يسمع منه شيئاً، راغباً أن يعرف عنه شيئاً. ولكن عبثاً..

ثمّ برزت متكاسلة أشباح أفكار يثيرها الفضول، تتساءل:

- أحق أنني على وشك أن أخدم البوليس، وأسلم أصدقائي لرجاله؟.

لم يأتي جواب، بينما امتدّ الفضول واشتدت وطأته، ولا زلت أذكر بوضوح أنّ الفضول والدهشة كانا الشعورني السائدين فيّ حتىّ لم أشعر إلاّ بهما.

في حالتي العقلية هذه، حالة رجل متحير قلق، واجهت سيمونوف الذي قال بعد أن أصغى إليّ:

- حسناً قررت.

وأخذ يوضح لي وهو قلق، كم كان سخيلاً أن أسبب هذا القدر من الضجة حول الأراجوز بوبنكو.

وأردف يقول:

- لقد تدخل البوليس الجنائي في الأمر. حسناً، حسناً سأسوي الأمر كله، ولكن يجب أن توقع هذه الورقة الصغيرة.

فسألته فجأة:

- ماذا؟ أتظن أنني خفت؟

فلم يجبني سيمونوف أول الأمر، بل أشعل سيجارة من طرف أخرى، وقال:

- لا، ذلك لم يخطر لي ببال، ويمكنك أن تصدقني. ولكن ليست هذه لحظة الكلام عنه.

ورغم ذلك تحادثنا واقفين، ما يقرب من ساعة أو يزيد. وما زال بي أثر غريب من ذلك الحديث: فقد أدركت من خلال كلماته أنه لا يقل عني دهشة من سهولة وسرعة قراري. فلم يثق بي وأزعجه هدوئي، وحيرته كما حيرني، كما أحسست أنه أراد إخافتي بطريقة ما، ولكنه أدرك أن لا شيء يخيفني. وبدا لي أن كل ما قاله كان بلا هدف وبلا هدف أيضاً أخبرني أن الكولونيل أوسيبوف عبّر له دائماً عن إعجابه بذكائي الحاد المستقل. فسألته:

- ألا يزال حياً؟

- لا، لقد مات، كان رجلاً لطيفاً.

فقلت موافقاً:

- أجل.

وأزاح سيمونوف الدخان عن وجهه بحركة سريعة من يده، وأردف موقناً:

- كان رجلاً عالماً، من النوع الرومانتي.

فواففته للمرة الثانية. وأخبرته أن بوبنكو شنق نفسه فعلاً، وإن يكن بإرغامي طبعاً، فهزّ سيمونوف كتفيه قائلاً:

- ليكون الأمر كذلك.

كان كل هذا عجبياً، ولكنه كان حقيقياً، وتبينت بذهني أن كله صحيح.

ولكن عقلي، وهو يراقب الأمر عن بعد، لزم الصمت، لا يثير شيئاً إلاّ إفساح الطريق أمام الفضول.

قلت لنفسني:

- واجه الأمر إذن. يا كرمورا

كنت لا أزال أنتظر، ووطننت أن صوتاً من داخلي سيرتفع قائلاً:

- قف، إلى أين تذهب؟

ولكن لم يأتني غير الصمت العميق.

\* \* \*

في مبدأ الأمر - أعني في الشهر الأول أو الثاني - كان سيمونوف الحقيقة الوحيدة الثابتة بين كل هذه الوقائع الغربية. كان رجلاً في الخمسين، متوسط الطول متين البنية، أشيب الشعر قصير، ذا أنف «روسية» معوجة، وشارب صغير ضارب إلى الحمرة، وعينين صغيرتين تنظران العالم بهدوء، بل شيء من النعاس. هناك كثيرون لهم هذا المظهر، ويقابلهم الإنسان كثيراً، فهم يوجدون في كل وظيفة، ويعملون في مؤسسات لا حصر لها. ويوجدون في كل شارع ومدينة. وقد اعتدت أن أنظر إليهم على أنهم أكثر الأنماط شيوعاً. وكان شيوع مظهره هو ما أعار سيمونوف صفة الواقعية خلال ذلك الجو الغريب والعمل المريب الذي أدّيته، وكل ما قاله عن موقف الموظف كان معروفاً لي، الموظف الذي لا يفهم ولا يتعاطف مع الأغراض الأساسية النهائية لعمله. فقد كان سيئ المعرفة بأحداث التاريخ ومشاكل السياسة، ولا تعنيه إطلاقاً أهداف الملكية، والقيصر وكل ما كلف بحمايته، ويكيل اتهاماته للبورجوازية بسرور زائد.

فسألته عن سبب قيامه بعمل صعب كهذا، فأجابني بصوته الخفيض الأجش:

- لو لا أنه يمتعني لما قمت به.

وفيما هو يخطب مبسم سجائره بغطاء العلبة، ويبتسم ابتسامة كسولة مغتصبة، استطرد قائلاً:

- فأنت ثوري لمزاجك الخاص. وأنا أدخل في صراع معك لمزاجي أيضاً، وأحاول صيدك، فأنجح وأقترح عليك قائلاً: دعنا نصيد سوياً! فذلك خير لنا. فأجد عملي بذلك أمتع وألذ.

عندئذٍ شعرت لأول مرة أن ثمة شيئاً خاطئاً، شيئاً خائناً في هذا الرجل. وتبين أن أفكاراً غير عادية تكمن تحت مظهره العادي. ربما تكون أفكار رجل الشارع ولكن في صورة زائدة.

وحدثته عن كل أنواع اللامساواة في العالم، وأنها يقيناً معين ما في الحياة من شقاء وألم. فهزّ كتفيه، ونفت سحباً من الدخان، وأجاب هادئاً:

- الأنتلجننتسيا الذين ورطوك في هذه المشكلة، كما أنك تقرأ الكتب السيئة عليك أن تقرأ كتاب يريهم عن حياة الحيوانات.

وأغمض عينيه نصف إغماضة، وسيجارتته بين شفثيه، ووجهه مدفون في سحابة من الدخان، وتطلع إلى السقف، وقال متباطئاً:

- ليس في الوجود أمتع من أن تخدع إنساناً وتقهره. تذكر ألعبيك في طفولتك وتتبعها خلال حياتك: «لعبة الاستغماية» ثم ألعابك مع الفتيات، وألعاب الورق - ليست حياة الإنسان إلا لعبة. حتى الذين تخلص لهم يلعب عليك بعضهم.

فذكرتني هذه الكلمات بالصراع الحزبي، بالفرح الذي كنت أخبره عندما أنجح في أن «أفوق» زملائي.

- اللعبة والصيد هما العملان المثاليان! لو كن لدي نقود، لذهبت إلى سيبيريا، داخل التاييا، أقتل الدببة، أو إلى أفريقيا. فالصيد عمل عظيم، وليست اللذة في القتل. بل اللذة عندما تضع الحيوان على مرمى بندقيتك فتشعر في هذه اللحظات بسيطرتك الإنسانية عليه. وهذا يفسر حقارة جريمة القتل، فهي ليست منزّهة عن الغرض.

أصغيت إليه منكرأً، ولكني قلت في نفسي:

- حسناً، إذا كانت الحياة يسيرها المقامرون والصيادون - فماذا يمنعني من المقامرة معهم ومع نفسي؟

لقد كان في عقل سيمونوف نقطة سوداء. فراغ عقلي، نقطة متصلبة، «كاللو».

- الألعاب والصيد.

هكذا كان يقول منحدرأً بحياته كلها إلى هذين العاملين، ولكني لم أصدقه لعرفاني كيف بيني الناس أسواراً يحتمون بها من الحياة، ويبررون عنادهم عن العمل في سبيلها.

وذات ليلة كنا جالسين في مخبئنا نحتسي الخمر، فقال سيمونوف:

- ذات مرة صادفت واحداً من الأنتلجنتسيا، واحداً من أولئك الذين يهيمون كالأشباح - أقسم لك بشرفي أن الإنسان وحش فقد صوابه، ولو أدرك الناس ذلك لرفضوا المشاركة في تاريخ الإنسانية. ولكن كيف يرفضون؟ وأين يهربون؟ حتى النساء والرهبان يندمجون رغم أنوفهم في هذه الوحشية العامة. لقد اعتبر سيمونوف نفسه رجلاً «طيباً» رغم أنه يمارس عملاً مشبوهاً. ولكن كان من العبث تذكره بذلك.

فقد اعتاد أن يقول كلما حدثته عما في العالم من ظلم:

- ولكن ما شأنك - ذلك تطفل منك، يا صديقي العزيز.

ثم يردف:

- يا إلهي، أي عقدة جعل منك أعضاء الأنتلجنتسيا؟

كان في موقفه مني شيء أفادني. أعني الاهتمام بالإنسان ككل، في مجموعته، أو اهتماماً خالصاً كما يقال.

ولم يكن سيمونوف يعاملني معاملة رئيس لمرووسه، ولكن كرجل مسن يعامل أصغر منه. فلم يكن يأمرني أو يصدر إليّ أوامر بل يقترح أو ينصح قائلاً:

- ما رأيك؟ هل نتخلص من هذا الرجل؟

فإذا اعتبرت ذلك سابقاً لأوانه، وافقتي دون مناقشة.

كان يشعر نحوي شعوراً يمكن تحديده بأنه نوع من القلق، ربما كان عين الشعور الذي يشعر به الصياد حيال كلب مفيد. أقول هذا دون تهكم أو تحسر فأنا أعرف الحكمة القائلة:

«أجمل النساء لا يمكنها إعطاء أكثر مما لديها».

إن هذه الحكمة تسكت صراخ الروح بقوة.

\* \* \*

لم يكن لي بين حشد الزملاء صديق، أو رجل يمكنني التحدث إليه عن أهم موضوع - عن نفسي. حاولت كثيراً بالطبع ولكن محاولاتي باءت بالفشل. كما أن الإنسان لا يستطيع أن يسد كل ثغرات الروح بكتاب. بل توجد كتب توسع وتعمق هذه الثغرات بشدة زائدة.

إنَّ القادرين على إدراك أنَّ كل ما في هذا العالم له ظله، وأنَّ الحقائق والأفكار ليست محرومة هي أيضاً من هذه الزيادة التي لا فائدة فيها، هؤلاء للأسف نادرون حقاً. إنَّ الظلال تشكك في نقاء الحقائق، والشكوك منحطة وإن تكن غير محرمة تماماً، فهي لا يركن إليها. فالرجل الشاك يثير الريبة دائماً - وهذا ما اعتبره الحقيقة الوحيدة التي لا ظل لها. وقد كنت مشهوراً بين زملائي بأنِّي رجل ليست له أيديولوجية ثابتة، ومتهور، وأسوأ من هذا كله - يميل إلى الرومانسية «والميتافيزيقيات» كما اعتاد أن يدعوها بأسوف الذي كان يقول دائماً:

- يجب أن يكون الثوري مادياً - فالمادية نظرية تعبر عن الإرادة. كما أنَّها منقاة من كل أمر غير معقول. أو لا عقلي. وتبينت أنه محق، ولكنني لم أوافق لكرهيتي له.

كان سيمونوف رجلاً يمكن التحدث معه في أي شيء. فهو يصغي دائماً بانتباه ولا يخجل من التصريح بأنه لم يفهم هذا، ولم يدرك ذلك، بل يصرح أحياناً، قائلاً:

- لا حاجة بي إلى معرفة هذا.

وكم دهشت عندما عرفت أنَّ «زيوس» أحد الأشياء التي لا يحتاج إلى معرفتها. أقول دهشت، لأنني كنت أعتقد أنه متدين.

قال وهو يهز كتفيه:

- غريب أن تسألني عنه. ماذا يمكن أن يشعر الإنسان حيال «زيوس» ولكل منّا أربعة عشر متراً من الأمعاء في بطنه؟ كما أنّه لو كان ثمة «زيوس» لوجب أن تعرفه الجمال والأسماك والخنازير. والإنسان حيوان عاقل. أليس حيواناً عاقلاً. حسناً، هناك عدا الإنسان كثير من الحيوانات العاقلة، كما أنّه قد ثبت أنّ العقل لا شأن له به «فزيوس» لا يدرك بالعقل. فماذا تقول عنه إذن؟ يلزمك حقاً أن تقرّ «بريهم».

وكان يعبر عن دهشته مني قائلاً:

- أي عقدة جعل منك أعضاء الأنتلجنتسيا!

- حسناً، لو فرضنا أنّي لم أتصل بهم، فماذا تظن أنّه كان يصير مني؟

فنظر إليّ نظرة ذات مغزى وقال:

- إني... إني مندهش. ربما أصبحت مخترعاً من نوع ما. أليس كذلك؟ لا أعرف. فأنت شخص غريب.

كان سيمونوف بوجه عام رجلاً لا حيوية فيه، منعزلاً لا أصدقاء له، ينقصه التعبير بالإشارات. رغم أنّه ثرثار. وتتحرك ذراعه ببطء، لا يضحك إلا نادراً، ويشعر المرء أنّه لا يبالي الحياة أو الناس. وكان كسولاً متعباً. فسرعان ما تبينت أنّ كل ما قاله عن مسرات الصيد والمقامرة، اخترعه لفائدته الخاصة. وأقامه على الظن، وكرره كعذر، فصيد الكائنات الإنسانية لم يكن يثيره إطلاقاً فقد كان يكتفي بمساعديه من المخبرين السياسيين، ولا يظهر أي إبداع في عمله. فلو أردتُ ألاّ أعمل لما احتجتُ إلاّ أن أستمّر في رواية النكات لسيمونوف عن حياة الحزب والثوار فقد كان الجانب الفكاهي من الثورة يهيمه أكثر من جوهرها. وكان يصغي إلى نكاتي بانتباه، وكلما باخت النكتة وضحت الابتسامة على وجهه المقطب. وذات يوم أبدى ملحوظة قائلاً:

- كان بوبنكو يخبرني هذه القصص خيراً منك. فقد كان يتحدث مثل بريهم.

كانت عبارة «مثل بريهم» أعلى مديحاً على شفثيه. وكتابه حياة الحيوانات، كل ما يقرأ.

وذات يوم سألته:

- لماذا تدعو بوبوف باسم بوبنكو؟

فأجاب:

- كما أراه. فكل إنسان ينظر بطريقة مختلفة. ربما كان بوبوف في نظري أطول وذراعه أقصر.

وكانت لسيمونوف لازمة أو عادة أثارت في الكراهية والارتياب. فقد كان يشرد عني أحياناً ونحن نتناقش. ويبدو وكأنه ينحدر إلى أعماق هاوية، وتعلو وجهه تكشيرة غضبي غبية، ويجمد إنسان عينيه في محجريهما، ويركز في بصره بشدة. كأنه منوم، ولكني كنت أشعر أنه يرى شيئاً ما، شيئاً مرعباً. ويخفي يديه تحت المنضدة ويحركهما من مكانهما ذاك، فيخيل إلي أنه يحاول الإمساك بعدادة ليردني بها. وكانت هذه النوبات من التأمل الأخرس تعتاده كثيراً، وأشعر بالحر ج عندما تتتابه.

من ذلك الحين أدركت أن شيئاً مبهماً غامضاً يكمن في سيمونوف شيئاً جد إنساني لدرجة أنه يخشاه وانتظرت حتى يكشف لي عنه، وأصبح اهتمامي به شديداً.

هناك نظريات كثيرة عن الخير: كالأناجيل، والقرآن، والتلمود وكتب أخرى متنوعة، فلا بد أن توجد بالمثل نظرية عن الحقارة والشر، لا بد أن توجد نظرية كهذه.

فكل شيء يجب أن يوضح، كل شيء، وإلا كيف يعيش الإنسان؟

\* \* \*

كتبت البارحة:

«لو أردت ألا أعمل، لما احتجت إلا أن أستمر في روي النكات»، أعني لما احتجت أن أقطع صلتي بزملائي بل لاستطعت أن أفيدهم. ولقد أفدتهم فعلاً، ولكني شعرت بعدم الحاجة إلى إفادتهم، فهي، لم تغير شيئاً بداخلي.

لقد نبذتهم، ولكن لماذا؟ وضعت ذلك السؤال أمام نفسي أول يوم اشتغالي مع البوليس ولكني لم أعر على جواب. انتظرت طويلاً احتجاجاً ينبعث من داخلي، انتظرت «ضميري ليتكلم» ولكنه لم الصمت. فضولي وحده كان يسأل ثائراً باستمرار:

- حسناً، ماذا يوشك أن يحدث؟

لقد جلدت نفسي محاولاً أن أوقف استحابة آثمة، تعلن بعزم وإصرار: «أنت مجرم». وأدركت بعقلي أنني أسلك سلوكاً منحطاً ولكن هذا الإدراك لم يلتق مع شعور محدد بعقاب الذات، كالقرف أو الندم أو حتى الخوف. لا، لم أشعر بشيء من ذلك إطلاقاً، لا شيء غير الفضول يتزايد نخزه وخطره، حتى ليكاد ينهكني. ويثير أمامي أسئلة كهذه:

- لماذا يسهل الانتقال من أعمال البطولة إلى الأعمال الحقيرة؟

أكان بوبوف محقاً عندما قال: «في أي صراع يكون لكل فريق أبطاله؟».

كنت بطلاً فيما مضى، أمّا اليوم فلست إلا رجلاً مأموراً مجبراً تواجهني مشكلة هي:

لماذا لا أشعر بالاشمئزاز عندما أسلك سلوكاً مهيناً؟ وضعت هذا السؤال أمام نفسي من كل زاوية ممكنة. ثمّ خطر لي: ماذا لو كان سيمونوف مصيباً، وليست الحياة إلا صراع وحوش مفترسة، وكل ما فيها ليس إلا لعبة وإني ألعب لعبة مدمرة مع زملائي والكتب؟ ماذا لو كان كل «معلمي الحياة» هؤلاء كالأشتراكيين، والإنسانيين، والأخلاقيين كذابين، وليس ثمّة شيء يدعى «الشعور الاجتماعي»، وليست الرابطة بين الناس غير أغلوطة، ولا شيء في الحياة غير أناس يحاولون العيش على حساب الآخرين. وسيستمر هذا إلى الأبد.

أجل، ليس كل هذا إلا خيالات وأكاذيب، سأهتك أقنعتها. يجب أن أعلن الإنسانية بأنها قد خدعت، وأنّ الحياة ليست إلا صراعاً سافراً بين وحوش، ولا ضابط لهذا الصراع. أنا أول من يكتشف أنّ الإنسان لا حول له ولا قوة ليبرر حقارة سلوكه الذي لا سبب له غير أنّ الحقارة سلاح مباح فعّال في هذا الصراع المتبادل.

هناك أسطورة ماكرة تقول: اعتاد جماعة من الناس أن يعجبوا بجمال طلعة إمبراطورهم وفاخر ثيابه، حتّى صاح فيهم رجل فطن، قائلاً:

- فيم إعجابكم؟ إنّ الإمبراطور عار وقبيح!.

فعندئذٍ أبصر الجميع وقالوا:

- أجل، إنّ الإمبراطور عار وقبيح الشكل.

سيطرت عليّ هذه الأفكار عام 1914 عندما شبّت نار الحرب وسقط عن الناس كل ما هو إنساني كما تسقط القشور عن السمك العفن.

\*\*\*

بعد أن قرأت كل ما كتبتّه. رأيت أنني لم أكتبه كما يجب، ولم أرو القصة كما أريد. فلقد صورت نفسي رجلاً تتنازع الأفكار، يحشو نفسه بالفلسفة، ويدمر في نفسه العنصر الإنساني، أي كل ما يعتبره عطفاً وخيراً. لا، ليس الأمر كذلك، وليست القصة كذلك.

فالأفكار رغم كثرتها، لم تربك عقلي أو تفتته. إنها تبدو لي كالفقايع على سطح الشعور الدائم الغليان - تطفو وتتفجر، وتحل أخرى محلها، وليست للأفكار حياة إلا بهذه الشحنة من الشعور. وبدون هذه الشحنة لا أشعر بها فيزيائياً، إنّ الأفكار كالأصابع تقبض، وتلتقط، وتنقل الوقائع، وترص القوالب، وتبني، وإذا خصبت بمشاعر أخرى، تلد بدورها أفكاراً أخرى جديدة. وبدون هذا التخصيب، يلعب الفكر بالرجل كالعاهرة، أي يعجز عن تغيير شيء فيه. وقد يحب الرجل العاهرة مخلصاً، ولكن المعتاد معاملتها بحرص - فقد تسرق الرجل أو تعديه.

لقد عشت أحد عشر عاماً بين أناس طرق تفكيرهم رسمية، وفي جو مصبوغ بلون الأفكار الرسمية. لم تشفني، بل كانت ثقيلة عليّ كيوم خريفي قاتم.

ولكني تبينت أنّ هؤلاء الناس مسحوبون من أفكارهم المحبوبة لأنها تشغل كل وجودهم، ونافذة في لحمهم ودمهم. ليست أفكار هؤلاء فقاقيع، بل قبضة تضغط عليهم، معتمدة على قوتها الخاصة. في عام 1907 و عام 1914 وأنا ألاحظ كيف يتخلى الناس بسهولة عن معتقداتهم عرفت أنّ شيئاً ينقصهم، شيئاً افترقوا إليه دائماً. ماذا كان الشيء؟ أنتشوف فيزيائي في مقابل شيء تجمده عقولهم؟ أم عادة الحياة بشرف؟

هنا يبدو لي أنني طرقت شيئاً مهماً:

أجل، إنّ عادة الحياة بشرف هي ما ينقص الناس. وينقص زملائي أيضاً. فقد ناقضت حياتهم معتقداتهم، ومبادئهم - أعني يقينيات الإيمان. وقد ظهرت هذه المناقضة خاصة في طرق الحياة الحزبية، في الصراع مع أناس من نفس العقيدة، ولكن من تكتيكات مختلفة. فهنا بدت أحط أنواع اللؤم، وأبيحت الخدع الملتوية، حتّى طرق المقامريرن الحقيرة، التي تدفع بها اللعبة إلى حيز الشعور وتمارس لأجل اللعبة فقط.

أجل، إنّ الأمر كذلك - الناس تنقصهم عادة بشرف. لست أجهل أنّ معظمهم لم تتح لهم فرصة إنماء هذه العادة ولكن الذين يهدفون إلى إعادة بناء الحياة وإعادة تربية النوع الإنساني، يخطئون إذا اعتقدوا أنّ كل أنواع الشر مباحة في الصراع. لا، فبعقيدة لن ينجح المرء في تعليم الناس أن يحيوا بشرف.

\*\*\*

ربما أزف وقت اقتراف المرء كل حقارة، وجريمة، واستفادته من كل شيء في العالم حتّى يحصل على مكانه منه، ويغادره آخر الأمر مرعوباً مشمئزاً - غريب ألا أستطيع منع نفسي عن الارتباط بشيء أو إنسان، رجال أو حوادث. ولذا فإنّ كل ما أقوله أشبه بمحاولة للدفاع عن بريء، محاولة أخفيها ولكن بلا توفيق.

المهم، أنّي أشعر بأنني غير راغب إطلاقاً في التماس الأعدار لنفسي. ليس هذا كبرياء، أو يأس رجل أفسد حياته إلى الأبد. ولا لأنني أريد أن أصرخ قائلاً: أجل، إني مجرم، ومثلي أنتم أيضاً ولكنكم أقوى مني، فامضوا ونفذوا إعدامكم. لست أشعر بأي دافع لأصرخ، فليس ثمة يستطيع يصرخ له، ولست في حاجة إلى الناس، ولا أشعر أي شعور نحوهم. إنّ كل محاولات التبرير اللاشعورية هذه تعوقني عن اكتشاف الأمر الرئيسي الذي أبحث عنه وهو: لماذا لم يرتفع من روعي صوت، أو صيحة، أو صرخة توقفني في طريق الخيانة، ولماذا أنا عاجز عن إدانة نفسي؟ ولماذا لا أشعر بعبء الجريمة رغم أنني أدعو نفسي مجرماً؟

إذا كان لمذكراتي غرض فهو هذا وحده - أي أتى أريد حل هذه المشكلة: ما الذي شطرنني إلى اثنين نهائياً وبلا رجعة؟ وقد ذكرت كيف جلدت ونفسي بلا رحمة لأجد جواباً. لقد خنت زملائي، وأرسلت واحداً من خير أصدقائي إلى الأشغال الشاقة المؤبدة، كان رجلاً كريماً الخلق، أحترم شخصيته وروحه الوثابة ونشاطه ومزاجه اللطيف. كان قد هرب من السجن لتوه، وذهب يختبئ للمرة الثالثة، وقد خنته وانتظرت شيئاً ليثور في روعي.

ولكن لم يثر شيء.

وذات يوم قال لي سيمونوف:

- أتحب الانتقال إلى موسكو أو بطرسبرج؟ فالمياه ضحلة هاهنا. وأنا أيضاً يحتمل أن أنقل إلى إحدى هاتين المدينتين.

فأجبت:

- يا بيوتر فيليوفيتش، ما أدراك أنني أحاول جهدي القيام بعملتي؟.

فلم يبادر بإجابتي كعادته، وثبت نظرة فيّ ثمّ تطلع إلى السقف وهزّ كتفيه قائلاً:

- لست أدري فأنت لا تسعى وراء النقود، ولا أرى فيك طموحاً زائداً. أغلب ظني أن بك حاسة انتقام؟ أليس كذلك؟ مع أن قلبك على العموم ليس قاسياً.

واستطرد مبتسماً وهو يزن كلماته:

- ليست هذه أوّل مرة تسألني فيها هذا السؤال. إنك سمكة غريبة. أبك شيء من الخبل؟ أهو كذلك؟ قل لي ماذا تعرف عن نفسك؟ أتعرف دوافعك؟

فأخبرته قصتي باختصار، فأصغى إليّ بانتباه، وهو يدخل سيجارة بعد أخرى حتى فرغت فقال بهدوء:

- حسناً، هذا أمر خطر. كم أفسدك هؤلاء المتقفون الأغبياء!.

وأردف وهو يشعل سيجارة جديدة:

- لو مضيت هكذا فقد تحاول وتقتلني. ماذا تبقى لك لتفعله؟ شيء واحد فقط وهو: أن تقتل إنساناً، فقد يثيرك ويجعلك تصرخ.

ونهض من مجلسه، وصبّ بعض الخمر في كوب ورفعته إلى النور، وظهر إليّ وبدا في تلك اللحظة صريحاً إلى حدّ يضايق، واستمرّ في وقفته طويلاً قبل أن أتبين أنه قد انتابته إحدى نوباته، أي

الغياب في المجهول.

فسألته:

- ماذا في الأمر.

فاستدار نحوي ببطاء، وجلس ونظر إلى الخمر، وتتهجد وأشعل سيجارة أخرى قائلاً:

- يجب أن تترك هذا الأمر، تخلّ عن كل هذا الحشو العقلي لمجرد سخافته، إنه ليس غريباً عني فقد خبرته بنفسي، إنّي أذهب إلى السرير فإذا استعصى عليّ النوم، تصورتُ نفسي وغداً يائساً، وأحياناً قديساً، إنه تصور مضحك تماماً، وأغلب الأحيان أتصور نفسي مشعوذاً، مشعوذاً فتاناً.

وفجأة مال على المنضدة، وقد زادت حيويته، ومضى في رواية قصته بصوته الأجنس:

- وكساحر ماهر أتخيل نفسي، فأظهر أولاً على المنصة في ملابس ضيقة - أنفهم؟ ملابس بلا جيوب كالبهلوان.

وابتسم ابتسامة رجل سعيد، وغمزني غمزة سخيفة مستطرداً.

- وإذا بين يدي بطة، أضعها على أرض المنصة فتسير، وتصيح وتضع بيضة. أمصغ إليّ؟ تضع بيضة يخرج منها خنزير رضيع، وتضع أخرى يخرج ظبي - وبومة وهكذا، حتّى تضع عشر بيضات. أيمكنك أن تتصور استجابة الجمهور؟ يقفون جميعاً على مقاعدهم يدعون عيونهم، ويتطلعون بنظاراتهم - دهشة عامة! ويشعر الجميع أنهم بلهاء. والحاكم المفوض خاصة - كم هو مضحك أن يشعر الحاكم المفوض شعور البلهاء! وفجأة تبدو لي رأس أخرى! وأشعل سيجارة تصبح في الحال سيجارتين بلا دخان فالدخان يخرج من أحمصي - «واخذ بالك؟» وفي الوقت نفسه يقفز الظبي ومثله يفعل الخنزير، وتحقق البومة في الجمهور بعينين مفتوحتين إلى آخرهما، وتخرج الحيوانات الأخرى وبتزايد عددها فأني سيرك مدهش!

وفاتحاً عينيه اللتين لا لون لهما، قال مدير البوليس، بيوتر فيليوفتش، محارب الثورة باقتناع عميق:

- بحق الإله، كيف يمكن للمرء أن يخدع الناس؟ بحق الإله، كيف؟

وشعرت وأنا أصغي لهرائه السخيف أنه معتوه، فهو لم يكن ثملاً، فمن عادته أن يكثر من الشراب ولا يثمل.

سألته:

- أهذا إذن ما تفكر فيه عندما تبدو كأنك توشك على النوم أو التلاشي في مكان ما؟

فأحني رأسه قائلاً:

- أجل، فقد خطر لي ذات يوم، وأنا أكتب تقريراً في إدارة البوليس، أنه يمكنني كتابة اسمي بحروف من نار في الهواء ويراها مدير البوليس: وشرعت في الكتابة فلم تنفع. تصور حروفاً من نار تتأجج أمام عيني سيمونوف. سيمونوف. ودخل عليّ مدير البوليس فحملت فيه متعجباً أتساءل: ألا تمكنه رؤيتها؟ وعندئذٍ سألني: ماذا في الأمر؟ هل أنت مريض؟ لا شك أنه كان خائفاً مني. وبدا في عيني سيمونوف جنون خفيف لطيف ولاح لي وجهه ذا أهمية ومعنى، وبأمل غامض في قلبي سألته:

- أهذا كل ما عندك لتقوله؟

فسألني بدوره:

- ماذا تعني؟

وقد مات مينة غريبة. جلسنا بالليل نتحدث زهاء ساعتين وكان سليماً معافى. وفي الساعة الرابعة بعد ظهر اليوم التالي وُجد ميتاً على أرجوحة في الحديقة.

\*\*\*

أتاني الزميل باسوف ومعه رجل أحمر الشعر، معصوب الجبين، وسألني: ألا تعرفني يا كرمورا؟

كان هذا الرجل أحد ثلاثة دبّرت أمر هروبهم من السجن، ولم أتذكره.

وسألني باسوف عما إذا كنت في خدمة البوليس عند هروبهم من السجن. سؤال سخيف، فلا ريب أنه قد عرف من وثائق البوليس أنني كنت في خدمته حينذاك. وحادثاني نصف ساعة بلهجة قاضيين طبيين كما هو متوقع منهما. ثم انصرفا.

ربما تركوني أعيش، وإنه ليهمني أن أعرف ما سأصنع بحياتي وهنا تواجهني مشكلة أخرى وهي:

هل تنقاد الحياة لإرادة الإنسان، أم الإنسان عرضة لأن تستهلكه الحياة؟

أجل، فأتساءل اشتغالي مع البوليس أبحث لنفسي ترف تدبير لذائذ صغيرة لزملائي: كالهروب من السجن والمنفى، وتنظيم المطابع والدعاية الأدبية. لم ألعب هذه اللعبة المزدوجة لأسلمهم للبوليس بعد أن أحوز ثقتهم. لا، وإنما كان ذلك طلباً للتنويع.

كثيراً ما ساعدتهم لشعوري بالصدقة، ولكن الدافع الأساسي كان الفضول، ففي كل مرة كنت أسأل نفسي: ماذا سيحدث الآن؟

\* \* \*

يُقال أنّ بالعين نوعاً من البلور ينظم عملية الإبصار، يجب أن توضع بلورة كهذه في نفس كل إنسان. ولكن مثل هذه البلورة لا وجود لها. وهذا سبب البلية.

أهي عادة الحياة بشرف؟ لا، إنها عادة الشعور بصدق. ولكنها مستحيلة دون حرية كاملة تبيح كشف أمثال هذه المشاعر ولكن هذه الحرية بدورها تجعل من الإنسان وغداً أو وحشاً. ما لم يقدر له أن يولد قديساً أو أعمى الروح. أيكون العماء هو القداسة نفسها؟.

\* \* \*

لم أكتب كل ما أريد. وما كتبتة ليس كما يجب. ولكني لا أريد الكتابة أكثر من ذلك.

السجناء ينشدون «النشيد الدولي» والحارس في الدهليز يصفر النغم بحنان مصاحباً لهم. كان في حزبنا رجل دعاية... الزميلة تاسيا ميرونوفا، فتاة رائعة. يا لقلبها العطوف الشجاع. لن أقول إنها جميلة، ولكني لم أر من هي أكثر منها حلاوة. لماذا تذكرتها فجأة؟ لم أسلمها للبوليس.. إنه مجرى الفكر، مجرى الفكر الذي لا ينقطع.

\* \* \*

ماذا يكون الأمر لو أنني حقاً ذلك الماكر الذي استطاع وحده أن يرى الحقيقة؟

ألا ترون أنّ الإمبراطور عارٍ وقبيح الشكل؟

لقد أتوا ثانية. إنني مفلوق منهم.

هوامش

(1). قتل الدكتور سيياجهين وزير الداخلية عام 1902.